مدخل الى علم اللسان الحديث (2)

II ـ نشأته وأطواره

1 ـ علوم اللسان قبل القرن التاسع عشر :

ان المقصود فى هذا الفصل هو أن نبين كيف نشأ علم اللسان لا كما فهمه العلماء فى غابر الأزمان ، بل بمفهومه الحديث . وعلى هذا كان من الممكن أن نكتفي ـ كما يفعله العلماء الغربيون ـ بالاشارة الوجيزة الى ما طرأ فى العصور السالفة من البحوث فى أسرار اللغات . غير أن هذا سوف يحرمنا من المعلومات الأصيلة التي تساعدنا على فهم النظريات الحديثة ، لأن المفاهيم التي بنيت عليها هذه النظريات لم تنشأ من العدم ، بل هي نتيجة لتطور طويل استمر عدة قرون ، فكم من مفهوم كان يظن أنه جديد وتبين للباحث بعد رجوعه الى التراث الانساني أنه قديم جدا ، وليس معنى هذا أن كل ما يوجد الآن فى علم اللسان هو من تركة القدامى (فنكون نفينا بذلك أصالته) . لان ما طرأ فيه من جديد ، وما طوره العلماء الآن حتى صار راقى وأعلى مما كان هو شيء كثير عظيم ، بل مرادنا هو أن نبين أن هناك قسطا وافرا من المفاهيم (تلك التي طورها العلماء) يجدر بالباحث أن يحلها محلها من التطور التاريخي حتى يتفهمها جيدا ويعرف بذلك أن هذا التطور ليس في الحقيقة سلسلة من الانتصارات والثورات العلمية ـ كما يظنه الكثير من الناس ـ بل هو جملة **غير متسلسلة** من الاصابات الرائعة ، تصحبها أو تتلوها حالات من الجمود والتقليد أو انتفاضات فاشلة أو ناجحة رجعية أو تقدمية ، كل هذا مع استمرار الجسيم من الأوهام (الى يومنا هذا) واستبداد بعض الآراء التي يختلط فيها الصواب بالخطأ ثم ردود أفعال عنيفة تبالغ فى دحض ما سبقها من الآراء حتى تكون هي بنفسها مستبدة على غيرها . أما الآراء السليمة فقد تظهر حينا وتختفي حينا آخر ويمكن أن يتتبعها المؤرخ عبر الزمان فيراها مضطهدة أحيانا ومنتصرة أحيانا أخرى ، ولكن فى جميع هذه الاحوال يراها دائما محفوفة بتلك الأوهام التي لا نظنها تزول زوالا كليا الا بزوال الانسان نفسه .

والذي حملنا بصفة خاصة على تحرير هذا الموجز التاريخي هو موقف علماء اللسانيات في القرن العشرين إزاء هذا التراث الانساني ، فأكثرهم صاروا ينفون صفة العلم من كل نظرية أو راي او اكتشاف سبق ظهور الدراسات اللغوية (فى القرن التاسع عشر) التي تتعرض لتطور اللغات وتتمسك بالنظرة الزمانية (Point de vu diachronique) . وعذرهم فى هذا هو إعجابهم بما أبدعوه فى القرن الماضي من المناهج الدقيقة لاجراء المقارنة التاريخية (وصحيح انه بديع) وعدم وجود هذه المناهج قبل ذلك (أما فكرة التطور فقديمة) . وقد بدأ الشبان من الباحثين الغربيين ينتبهون الى هذا الخطأ فى السنوات الاخيرة فبادروا الى دراسة التراث العلمي فى ميدان اللغة واكتشفوا أشياء مفيدة جدا (1) .

---

(1) لقد بادرنا في الجزائر الى القيام بمثل هذا فيما يرجع الى التراث اللغوي العربي .

قــال جــورج مونان Georges Mounin أحد علمــاء اللســانيات المتــازين في زماننا (2) : « يحدد تاريخ نشوء اللسانيات بحسب نظرة الباحث اليها ، فمن الممكن أن يقال أنها نشأت في القــرن الخامس قبل الميــلاد أو فى سنة 1816 مع بوب (Bopp) أو في سنة 1916 مع سوسور أو فى سنة 1926 مع تروباتسكوي (Troubetzkoy) أو فى سنة 1956 مع تشومسكي » (3) . ان هذا القول لوجيه جدا ولا ينقصه الا نظرة الباحث الذي اطلع على ما أنتجه العلماء العرب القدامى فى هذا الميدان اذ ربما تفضي نظرته الى اللسانيات واطلاعه على علــوم العربية الى أن يجعل مبدأ انطلاق الدراسة العلمية للسان فى القرن الثاني للهجرة وبالاصح فى فترة ما بين 100 و 175 بعد الهجرة (و 175 هي سنة وفاة الخليل بن أحمد) ولــكن هذه وجهة نظر ليس الا . وقد اعتبرنا هذا القول من مونان جد وجيه لان الباحثين مختلفون أشد الاختلاف — لا فى تحديد علم اللسان التحديد العــام موضوعا ومنهجا ، بل فى تقييم النظريات المذهبية وما يتبعها من مناهج التحليل . فكل يعتقد الاعتقــاد الراسخ أن هذا العلم الذي تخصص فيه قد ظهر الى الوجود يوم ظهرت الفكرة الرئيسـية التي بنى عليها مذهبه لا قبل ذلك ، فلا ينكر أن يكون قد وجد بين المفكرين من استطاع أن يلمح مظهرا ما من هذه الفكرة ولكن ما هي في الحقيقة الا لمحة خاطفة سطحية . وهذا الذي يظنه هو ، في الغالب ، صحيح بالنسبة الى مذهبه وما أظهره أصحابه من آراء نظرية ومنهجية ، الا أن الآراء والمذاهب العلمية ليست هي العلم على الحقيقة ما لم تفرض نفسها بعد بقوة ساعديها ، أي بالقدرة على تفسير العدد الــكبير من الظواهر ومن ثم على استيعابها فى مجموعة منتظمة تبين بهذا الانتظام المعقول نفسه حكمتها وأسرار وجودها وترابطها ثم القدرة على التوسع الاستكشافي بحيث يتمكن بها الباحث من الانتقال من المعــلوم الى المجهول — من الشاهد الى الغائب — بفضل المبادىء النظرية والمنهجية التي بني عليها المذهب فاذا فرضت نفسها بهاتين الخصلتين ما صرنا نعتبرها آراء ومذاهب بعد ذلك ، بل **المذهب** الذي يجب أن يتبعه كل الباحثين الى أن يأتي حين يصير فيه غير شاف ولا كاف لتفسير كل ما طرأ عليه من ظواهر تكتشف أو مشاكل تطرح .

---

(2) انظر كتابه : **Clefs pour la linguistique** ط. باريس 1968 — ص 23 . سنتعرض فيما يلي الى كل العــلماء الذين ذكرناهم ههنا .

(3) ويشير مونان بتأريخاته هذه (على الترتيب) الى : ظهور الابحاث اللسانية لاول مرة فى الهنــد (القرن الخامس قبل الميــلاد) وظهور أول كتاب فى النحو المقــارن واللسانيات التطورية ألفه فراتنس بوب (صدر فى ســنة 1816) وظهور أول تأليف فى اللسانيات البنوية مع سوسور (صدر بعد موته وبجمع بعض أصحابه لــا أملاه عليهم من الدروس ، فى سنة 1916) وعرض أول دراسة للصوتيات الادائية (الفنولوجية) للغوي الروسي تروباتسكوي ، وأخيرا نشر أول محاولة فى النحو التحويلي والتفريعي مع تشومسكي . وسنرى ذلك بالتفصيل فيما يلي ان شاء اللــه .

اقـدم تحليل علمي للسان البشري :

ان علم اللسان كما قلنا لم ينشأ طبعا من العدم ، فلا بد أن تكون قد سبقته مفاهيم عديدة على مر الايام تصورها الانسان جيلا بعد جيل ، وقد يكون الكثير منها على جانب كبير من الصحة ، فان الآدميين ما صاروا موصوفين بذلك الا لانهم استطاعوا أن يتواضعوا على مصطلحات صوتية ليبلغ كل واحد منهم للاخرين ما في ضميره فصارت هذه الاصوات الرمزية عونا لهم على التعايش والتعامل بل وسيلة — وهم غير شاعرين — لتنمية مداركهم العقلية وكسب المعارف الضرورية لجلب المنافع ودفع المضار . ولا شك أن البعض منهم منذ أقدم العصور بدأوا يتعجبون من هذه الوسيلة التي اختص بها الآدميون دون الحيوانات الاخرى فتدبروها وتأملوها حتى جاء أحدهم — ولا ندري من هو — ففكر مليا في حيلة تحفظ الكلام الزائل الذي تفنى حروفه أحدها تلو الاخرى بمجرد ما تحدث (لكونها أصواتا تنتشر في الهواء بالتموج فتزول بزواله) فتمنعه من التلاشي والاضمحلال فما وجد أحسن من تمثيله تمثيلا ملموسا بأن يصور نقشا على الحجر (أو أي مادة صلبة) معاني الكلم بصور ترمز من قريب أو من بعيد الى تلك المعاني . فمكن بذلك لاول مرة في تاريخ البشرية بني جنسه من أن يخاطب بعضهم بعضا وبينهم مسافة بعيدة ، كما مكنهم من مخاطبة الاجيال التي لم تحضر بعد ، فيكلم الفرد عبر الزمان من لم يولد بعد وذلك بحفظ كلامه على هذه الطريقة . وبما أن الانسان ميال بطبعه الى الاقتصاد في مجهوده ، فكر اناس آخرون في اختصار هذا التمثيل والتخفيف مما يكلف المبلغ والمبلغ اليه من مشاق التصوير المعقد ومن عناء كشفه وحله ، فاحتاجوا عندئذ الى مزيد من التأمل والتروي وتفطنوا بعد مدة طويلة (تقدر بعدة قرون) وبعد أن توفقوا الى طريقة من التحليل سلطوها على مدارج الكلام ، الى الصفة الجوهرية التي يتصف بها اللسان البشري . فقد عرفوا أن له مستويين من التحليل : مستوى العناصر الدالة ، ومستوى العناصر غير الدالة ، وان تلك الدوال تتركب من هذه التي لا تدل فأداهم ذلك الى احصاء كل العناصر الاولية غير الدالة وتشخيصها بالصفات الذاتية والتمييز بينها بمقابلة بعضها ببعض فاكتفوا بتمثيل رمزي لهذه العناصر المحدودة العدد بدل أن يصوروا المعاني الكثيرة علما منهم أن تصويرهم لما يتركب منه الكلام هو تصوير (4) له أيضا ولكن من اخصر الطرق

---

(4) ينبغي للمبتدىء الذي يخوض هذا العلم لاول مرة أن يتنبه الى التباس خطير جدا ربما أفسد عليه كل المعلومات التي سيحصل عليها فيما بعد وهو عدم الفرق بين **الحروف الصوتية** (Segments sonores) **والحروف الخطية** (Segments graphiques) وهو الفرق بين **الصوت اللغوي** وبين ما **يقوم مقامه** ويمثله من الرموز الخطية ، فالاول هو الاصل لان **الكتابة** — كما قال العلماء العرب — **تابعة للفظ** ، لانها رموز له ، والصوت اللغوي هو الذي بنيت عليه الكتابة الهجائية ، فكان يجب أن تناسبه مناسبة تامة ، ولهذا قيل في قياس الكتابة ان حق كل حرف صوتي أن يصور بحرف خطي يختص به ، وحق كل حرف خطي أن ينفرد بحرف صوتي واحد ، ثم أن يصور الخط كل ما هو موجود في اللفظ وألا يترك أي حرف خطي بدون مقابل صوتي ، وهذا حاصل بالفعل في الكتابة العربية (الا في أحوال شاذة مثل : واو « عمرو » ، وألف « فعلوا » ، وغير ذلك) ، وكذلك في الكتابة الشبه الصوتية التي تستعملها التشيكية ، والاسبانية ، والتركية ، وغيرها . ولكن غير حاصل بالنسبة للنظام الاملائي الفرنسي والانكليزي (ففيهما مثلا **x** التي تشير الى صوتين [**Ks**] أو [**gz**] و **i** التي تشير الى [**ay**] في الانكليزية والعكس : **ai** و **er** و **et** وغيرها تمثل صوتا واحدا وهو [**ɛ**] في الفرنسية ، وقد لا يمثلان شيئا مثل **ent** — كعلامة **خطية** للجماعة) . فالذي

وأوعبها . فكانت الكتابة تصويرا رمزيا للهجاء بعد أن كانت تصويرا رمزيا للمعاني .

يجب أن يتنبه اليه المبتدىء هو أن اللغوي اذا تكلم عن **الحرف** فانه **لا يعني الا الصوت اللغوي** (القطعة الصوتية التي هي الاصل في تحليلاته phonème ; Segment sonore ; واذا أراد رمزه الخطي الذي يسميه العرب أيضا اختصارا حرفا ، فانه ينبه دائما على ذلك ، والحرف في أصل اللغة هو طرف الشيء والحد الذي ينتهي اليه التحليل Segment minimal (ولهذا استعمل للدلالة — في نفس الوقت — على أصغر القطع اللفظية وأصغر القطع الخطية مما يمثلها ويرمز بها اليها). أما علماء أوربا قديما فكانوا يستعملون لفظتين مختلفتين كما في الفرنسية : lettre = الحرف الصوتي ، Caractère = الحرف الخطي . ولما صارت الاولى تلتبس في الاستعمال بالثانية وضعوا كلمة جديدة لمعنى الاولى ، فقالوا phonème عوض lettre . أما العرب قديما فما كان يشتبه عليهم هذا الامر ، وكلما أراد اللغوي منهم الجانب الخطي نبه على ذلك وقال مثلا : « أما صورة الحرف في الخط .. » ، أو « هذا موجود لفظا وخطا » ولهم تمييز آخر ، فقد استعملوا للدلالة على اسم الحرف (كالباء والميم والياء مثلا) لفظة الهجاء (انظر الكتاب لسيبويه ، 2 ، 275) ، وهو نوع من الاسماء كالضمائر وأسماء الاشارة وله وضع خاص اذ هو كأسماء العدد أو الاصوات لا ينطق به الا بالوقف عند التهجي أي عند ذكر كل حرف حرف مما يدخل في الكلمة أو حروف المعجم (ولا يعرب الا اذا أخرج عن التعداد الى التركيب كهذه العبارة : « كتبت واوا وهذه باء لا ياء ») وهناك جانب آخر في حدوث اللبس وهو أن اللغوي — زيادة على اهتمامه بالحرف الصوتي فقط — لا يلتفت أبدا الى نوعية الخط ودرجة جماله وقبحه — كلغوي طبعا — بل الى وظيفته ومدى قدرته على تمثيل الاصوات اللغوية . فالخطر الذي يهدد المبتدىء الذي ربما أساء فهم هذه الامور هو أن يقول أولا : ان صوت الكاف اللاتينية (ورمزه : C) صار في الفرنسية الحديثة Ch (أي حرفين) وهذا غلط فاحش لانه يحكم على الاصوات وهو ينظر الى رموزها الخطية في الوضع الاملائي الفرنسي اذ Ch في الكتابة الفرنسية الحديثة تمثل حرفا صوتيا واحدا وهو الشين (رمزه في الكتابة الصوتية : ʃ أو š) وكذلك ē اللاتينية (فتحة ممدودة ممالة امالة شديدة) اذا قال عنها انها صارت oi والواقع ان هذا رمزها القديم (الضم المتبوع بياء ساكنة) والان هي واو مفتوحة وكان يجب أن تكتب wa الا أن الكتابة الفرنسية لم تتبع تطور اللفظ فبقيت تشير الى النطق القديم . وقد يعرف المبتدىء أن oi قد ينطق بها wa الا أنه مع ذلك يقول ان ē وهي الالف الممالة صارت ضمة متبوعة بياء وينسى أن استدلاله هذا قد سلطه على الرموز الخطية لا على الاصوات الحقيقية ، وهذا الوهم قد يصيب الكثيرين من المثقفين الاوربيين الذين لم تواتهم الفرصة لدراسة اللسان الدراسة العلمية لعدم تمييزهم بين الـ Phonème والـ Graphème أو الـ Lettre والخطر بالنسبة الى ذوي الثقافة العربية أقل بكثير لما أشرنا اليه من قبل، من وجود تطابق كبير بين رموز الكتابة وأصوات اللغة العربية ، الا أن تأثر هؤلاء بالثقافات الاجنبية غير اللسانيات قد يؤديهم الى ارتكاب نفس الاغلاط في مادة العربية فيختلط عليهم الجانب الصوتي بالجانب الخطي . ثم قد يلتبس على الجميع — ثانيا ، أمران مختلفان — كما قلنا — الجانب الفني للخط (صنعة الخط) والجانب اللساني ، فان اللغوي وان يهتم بالخط من حيث تأديته لما من أجله اخترع وهو تمثيل الحروف الصوتية للمحافظة على ما تتضمنه تركيباتها من معان، فانه لا هم له أبدا بالتفنن الذي يتعاطاه الخطاطون انما يلتفت الى بنية الخط التي بها يؤدي مهمته وتطور هذه البنية ولا ينظر اليه الا من هذه الزاوية ويترك لغيره ما لا دخل له فيه .

فان مجرد وجود كتابة مثل هذه فى تلك العصور العتيقة (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) لدليل واضح على قدم البحث (5) والتنقيب عن مباني اللسان (6) وكل منا يؤيد ما قالــه أنطــوان ميي (Antoine Meillet) من أن « الذين اخترعوا الـكتابة وحسنوها

---

(5) ونسبة هذا الاختراع الى الفينيقيين أمر محقق ، مجمع عليــه الان (خصوصا بعد اكتشـاف آثـار أو غاريت ، المدينة الفينيقية العتيقة برأس شمرة الواقعة فى الشمال الغربي من سوريا سنة 1929) .

(6) لا شك أن أول من فكر فى هذه الطريقة فى تمثيل الهجاء استعار مادة (هـ ج) و (ح ر ف) للدلالة على العناصر الصوتية الممثـلة بهذه الـكيفية لان كلاهما يدل على الشيء المحدد المحرف (أو على المصدر كالتحريف والحفر . قارن مادة : (ج ر ف) أيضا و (ج ف ر) و (ح ف ر) و (ج ر ح) وغيرها) ولا ننس أن التقطيع الهجائي قد استعير له أول الامر الخط المسمى الان بالمسمـاري (Cuneiforme) ، وكان يكتب على لوحات من الطين فتحفـر فيه الحـروف بقـلم مبري محـرف ثم تجفف . واستعمل هذا الخط الـسومريون أي الـكلدانيون والاشوريون (أهل بابل ونينوى) وكان قبل ذلك مجرد رسوم دالة (تمثل المقصود بصور الاشياء (Pictographie) ثم أخذت هذه الرسوم المحسوسة شكلا مجردا فأصبحت مجموعة من الخطوط الصغيرة ذات حد ورأس) ولهذا سماه العلماء الان مسماريا ، ويرجع أقدم أثر لــه الى ما حوالي 3000 سـنة قبل الميلاد . وتتركب المسامير على أوضاع خاصة يصطلح عليها مثل : : الو = الـه ، و : اينو = عين (فى لسان الاكادين الساميين) .

ولا يشير المسمار أو مجموع المسامير أبدا الى صوت أو حـرف صوتي مباشرة ، وانما وضعه مع غيره يدل على معنى ، ومن ثم على المجموعة الصوتية التي تحمل هذا المعنى . وبذلك صار **كتابة تصويرية** (Idéographie) تمثـل المعـاني المفـردة أي معـاني الـكلمات باصطلاح خاص بخلاف **الـكتابة الحـرفيـة** (Phonographie) التي تحكي الـكلام الملفوظ حكاية تامة وبدون واسطة ، الا أن هذين النوعين من الـكتابة يتحدان فى كونهما متـسلسلي الشكل وليست كذلك الرسوم . ثم تطور المسماري فى دلالته فصارت بعض الاوضاع المسمارية يوما ما تشير الى بعض الاصوات الملفوظة ، بعد أن كانت لا تشير الا الى المعاني المفردة (وساعدها على ذلك التباس الاسم بالمسمى أي الدال بالمدلول أو اللفظ بالمعنى ، فتركوا المعاني التي كانت تدل عليها بعض الاوضاع المسمارية ، ونظروا الى الاصوات التي تدل على تلك المعاني **فى اللفظ** فصارت هذه الاوضاع الخطية تقابل الاصوات مباشرة لا بواسطة المعاني) وهذا قد حصل أيضا فى الخط الهيروغليفي (المصري القديم) . الا أن أحدا منهم (المصريين والاشوريين) لم يتفطن أبدا الى أهمية التمثيل الصوتي المباشر ، وكتب على الفينيقيين اختراع الطريقة الهجائية فعمموا التمثيل الصوتي بالنسـبة الى جميع الرموز الخطية وامتنعوا من تمثيل المعاني على مستوى الحـروف الخطية المفـردة (الذي يحكي التقطيع الثانوي) وجعلوه فى مستوى مركباتها ، أي مستوى الـكلم (الذي يحكي التقطيع الاولي) وبذلك يستطيع الـكاتب أن يكتب الالاف من الـكلمات بعـدد قليل جدا من الرموز الخطية . ولا نعجب من ذلك ، فان الفينيقيين كانوا قوما تجارا كثيري التجوال والمعـاملات ، جد نشيطين غير مقيدين بالتقاليد الاجتماعية العقيمة (خصوصا فى ميدان المعاملات) . وقلنا انهم قد اتخذوا الخط المسماري فأدخلوا عليه هذا الاصلاح ، وليس اصلاحا فى الحقيقة ، بل **ثورة جذرية** ، لان أهم شيء فى الـكتابة — بالنسبة الى منافعها الاساسـيـة — ليس هو شكلها ونوعيتها المادية أو الجمالية كما قلنا ، بل كيفية ادائها لعملية التبليغ ومدى نجوع نظامها فى قيامه بهـذه المهمة . وخير الانظمة كما هو معـلوم هو ما قلت مؤنته وكثرت فوائده ، غير أن الفينيقيين ما لبثوا زمانا طويلا حتى تبين لهم عيوب الصورة المسمارية فتركوها الى ما هو أخصر وأفيد منها ، وبعد أن اخترعوا طريقة التمثيل الصوتي اخترعوا رموزا خطية جديدة أقاموها مقام المسمارية وجعـلوا لـكل حرف صوتي صورة واحدة بسيطة سهلة التصوير عوض المجموعات المعقدة من الخطوط المسمارية ، وبهذا خرجت الى الوجود لاول مرة فى تاريخ البشرية الـكتابة الابجدية التي عم استعمالها فيما بعـد فى أكثر أنحاء المعمورة وكيفتها الامم التي استعارتها منهم — مثل اليونان — بحسب ماتقتضيه خصائص لغـاتها (انظر الصور التي ترافق هذه المقـالة) .

الرمز	صوته (بالمصطلح الدولى)	المدلول	الرمز	صوته (بالمصطلح الدولى)	المدلول
	ỉn	رجل رافعا يده		s	وزة
	ỉn	إناء ذو قوائم		ʿs	غطاء
	ỉn	حوت		s'w	قصبة
	ỉwm	عمود		dw	جبل
	ỉr	عين		db	خيمة
	ỉs	مزمار		dr	حزمة
	c	سارية		pʿo	طائر
	ʿb	قرن		pr	بيت
	ʿnd	حبل معقد		ph	است
	ḥt	غصن		m	منجل
	h	حوت		mj	إناء متدلى
	hn	جلد أو قربة		mn snt	مربعات
	hn	أيدى ماسكة مجداف		m	إناء منصوب

بعض النماذج للكتابة الهيروغليفية المصرية

الهجاء الأوغاريتى	صوته
𐎀	ء
𐎁	ب
𐎂	ج
𐎃	خ
𐎄	د
𐎅	هـ
𐎆	و
𐎇	ز
𐎈	ح
𐎉	ط
𐎊	ى
𐎋	ك
𐎌	ش
𐎍	ل
𐎎	م
𐎏	س مقعسة
𐎐	ن
𐎑	ص او ض
𐎒	س
𐎓	ع
𐎔	پ
𐎕	ص
𐎖	ق
𐎗	ر
𐎘	ث
𐎙	غ
𐎚	ت
𐎛	ء مكسورة
𐎜	ء مضمومة
𐎝	س

الأبجدية الأوغاريتية

(نظام أبجدى بشكل مسمارى)

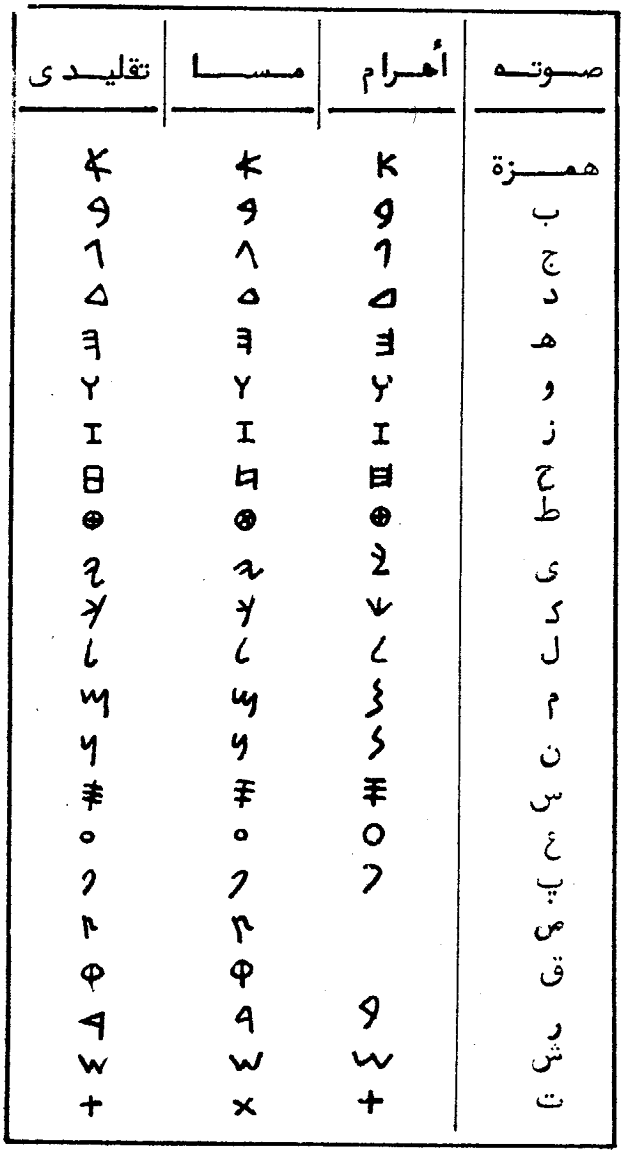

الابجدية الفنيقية

هم فى الحقيقة من أكبر اللغويين ، بل هم الذين ابتدعوا علم اللسان » (7) وذلك لان ما اختاروه من الرموز الخطية لتمثيل التقطيعات الصوتية الاولية يقتضي أنهم قد حللوا بالفعل مدارج الكلام ، على نفس الكيفية التي يجريها اللغويون المعاصرون على الكلام كما يقتضي أنهم تبينوا بالفعل وجود مستويين من التقطيع وتداخل هذين المستويين أحدهما في الآخر ثم أكثر من هذا فانهم استطاعوا أن يعطوا لكل عنصر ينتهي اليه التحليل حقه من الصفات المميزة فعرفوا بذلك الوحدات الادائية المجردة فاتخذوا لها رموزا واختصوها بذلك دون الاصوات الجزئية ، ومعنى هذا أنهم نظروا الى الحروف على أنها أمور كلية تستحق هي وحدها أن يرمز اليها ولم يلتفتوا الى جزئيات الاصوات بل جمعوها فى **مسمى واحد** وهي الباء أو العين أو الجيم ، فهذه أسماء يندرج تحتها أنواع من الباءات والعينات والجيمات ، الخ . . فهي وحدات فنولوجية لا صوتية (8) . وفعلوا كل ذلك وكأنهم غير شاعرين بأهمية وخطورة ما توصلوا اليه ، فما أخبرونا تماما عن المناهج والمقاييس التي اعتمدوا عليها فى تحليلاتهم ، ومع ذلك فلا يسعنا الشك ابدا فى وجود مثل هذه الطرق عندهم اذ لا يتصور أن يخترع مثل هذه الرموز الأدائية دون أن يلجأ الى صنعة تحليلية مماثلة لما هو موجود عندنا اليوم . على أنه ان دلت هذه الاختراعات العجيبة على قدم المحاولات التحليلية لمباني اللسان فان هذا لا يجوز لنا أن نقول بأن علم اللسان قد عرف مفهومه وثبتت أقدامه واكتملت فنونه ونظرياته ومناهجه فى هذا العصر الطاعن فى القدم ، لانه ينبغي لكل ذي دراية أن يميز بين اطوار نشوء العلوم وأطوار نضوجها واكتمال مادتها ووسائلها . وهذا يشبه ما قلناه — فى غير هذا المكان — عن أول من وضع النحو العربي وعن قدم هذا الوضع ردا على من ادعى استحالة ارجاعه الى ما قبل سنة 69 (سنة وفاة أبى الاسود الدؤلي) نظرا لقدم هذا العصر وعدم تمكن عقول المسلمين فى مثل هذا الزمان المبكر من الاستيلاء على المفاهيم النحوية التي احتاجت لها عقول اليونان وغيرهم فى تكوينها الى المئات من السنين (9) . ولقد أجبنا على هذا بأن هذه المبادرة ليس معناها النضوج . والمحاولة الاولى في تحليل اللسان تحليلا عمليا غير المادة العلمية الضخمة التي تكدسها اعمال وعقول العلماء على ممر الايام . والذي يؤثر

---

(7) أنظر : Compte rendu de Baudouin de Courtenay فى Bulletin de la Société de linguistique de Paris سنة 1912 — 1913 ، ص : CXIV .

(8) انظر فيما يلي كلامنا عن محاولة تروباتسكوي فى تجديد مناهج التحليل الصوتي وخلق منهاج جديد سماه الفنولوجية .

(9) ومهما كان الامر فالمشكل قائم لانهم ان قالوا بحدوث هذا الوضع فى عهد عبد الله بن أبى اسحاق (ولا يمكن أن يرد الى ما تحته من النحاة لانه ثبت ذكر أقواله فى كتاب سيبويه) فان بينه وبين أبي الاسود أقل من ثلاثين سنة . ولذلك زعم بعضهم أن أكثر هذه المفاهيم دخيلة فى الثقافة العربية وما لهم على ذلك الا حجج جد واهية كما بيناه فى غير هذا الموضع .

عن أبى الاسود هو مبادرته فى استقراء المادة اللسانية للقرآن بالخصوص واستنباطه من هذا الاستقراء لثلاثة مقاييس نحوية عامة الوجود وهي أبواب الفاعل والمفعول والمضاف ، ثم وضع علامات خطية (فقط) للدلالة عليها . فهل هذا هو كل النحو ؟ وان كانت هذه المقاييس اولية ومجرد مبادىء فان لهذا العمل ولهذا المنهج فى استخراج حدود اللسان ومقاييسه اهمية عظيمة لا يقدر لها تقدير ، اذ لم يؤثر أنه حصل مثل هذا فيما قبل بالنسبة الى العربية ، ثم هي محاولة علمية حقيقية وليست من محض الهواجس التي تذهب أدراج الرياح بعيد ظهورها اذ اثارت أعظم حركة فكرية عرفها العالم ، قبل عصرنا الحاضر ، فى ميدان العلوم اللسانية . وما كانت كذلك الا لان مناهجها اتصفت بما هو لازم لكل منهج علمي : المشاهدة الموضوعية للاحداث ، والاستنباط الاستقرائي للقوانين ، والتحليل الرياضي الكاشف عن أسرار الظواهر ، وكل ما يتفرع على ذلك من طرق جزئية خاصة . ومن البين أن كل هذا لم يخرج الى الوجود خروج « كن فيكون » بل احتاج الناس بعد الدفعة الاولى ، دفعة أبي الاسود الدؤلي واصحابه (10) الى أن تنضج فكرة النحو الناشئة وأن تعبد طرق البحث فيه وتحور مفاهيمه الاولية . ولكن أهم شيء فى كل هذا هي هذه الفكرة الاولى التي خطرت فى بال أبى الاسود ، لا فكرة المحافظة على سلامة اللسان العربي بوسيلة من الوسائل ، فلا شك أن هذا قد فكر فيه المئات من المسلمين ، ولكن **فكرة استقراء النص القرآني وتصفح الظواهر اللسانية العربية من خلال هذا النص الكريم** وكلام العرب واشعارها **واستنباط قوانين العربية** بهذه الطريقة وحدها واختراع نظام من

---

(10) ان الذي يهمنا ههنا ليس هو تعيين الواضع الاول ، بل تعيين زمان الوضع فان الذي لا شك فيه هو أن طريقة الدراسة اللغوية الشاملة للنص القرآني هو من عمل بعض القراء الاولين مثل أبى الاسود نفسه (المتوفى سنة 69 هـ) ، ونصر بن عاصم (المتوفى سنة 89 هـ) ويحيى بن يعمر (المتوفى سنة 89 هـ) ، وغيرهم . أما ما قاله محمد بن سلام الجمحي — وهو أقدم أثر عن وضع النحو وصل الينا — فهو مناسب تماما لما تقتضيه نواميس التطور ، فقد قال فى طبقاته (ص : 12 من ط القاهرة سنة 1952 م) : وكان أول من **استن** العربية (أي علم اللسان العربي) **وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ووضع قياسها** (أي كيفية تقنينها) أبو الاسود الدؤلي . وقال (ص 14) : ثم كان من بعدهم عبدالله ابن أبى اسحق فكان أول من **بعج النحو ومد القياس والعلل** . . . ويجب على الباحث أولا أن يتفهم جيدا معاني هذه الكلمات التي استعملها ابن سلام ولا يحملها الا ما حملها هو نفسه ، وثانيا أن يقف عند حد هذا الخبر الذي يستسيغه العقل ويترك الخرافات التي نسجها الاخباريون وأصحاب التراجم فيما بعد .

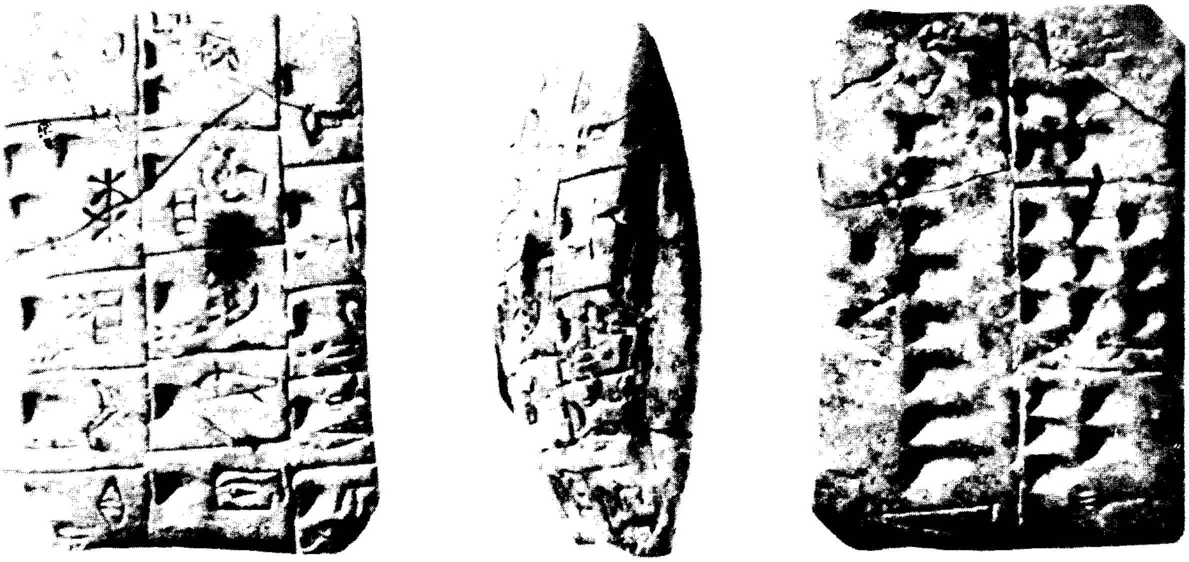

لوحة من الطين تمثل أقدم نموذج للخط السومرى
(توجد في متحف برلين)

نص باللغة السومرية مكتوب بالخط المسمارى ومعناه : كد نمردوك بن شيلد مقا كبير بوّابورياش ملك العالم . دامت قوته مادام حيا

الرموز الخطية لضبط نص القرآن وتصحيح قراءته (لاول مرة فى تاريخ الخطوط السامية) (11) . فهـذا هو الامر الخطير الذي لولاه لمـا كانت لدى المسلمين بحوث علمية فى اللسان العربي ، ولمـا تمكنوا من ضبط واحكام المناهج الدقيقة التي عرفت عنهم فيما بعد . فكما أن الدراسات العلمية للسان العربي ما كانت لتتحقق وتمتد مناحيها وتتسع دائرة الاجتهاد فيها (اتساعا لم يشاهد له مثيل قبل ذلك) لولا هذه الفكرة الاساسية التي انطلقت منها وتلك الانجازات الاولى التي مهدت لها السبل ، فكذلك العـلوم اللسانية (بصفة عـامة) ما كانت لتتقدم وتترقى لو لم يكن من خطر فى بالـه ــ لا فكرة التخفيف من كلفة الـكتابة التصويرية والخروج الى نظـام رمزي افضل وأفيد فان هذا قد فكر فيه الآلاف من محترفي الـكتابة ، بل فكرة استقراء مادة اللغـة واصواتها وتحليلها تحليلا علميا يفضي به الى اكتشاف نظامها وبنيتها فيسهل عليه حينئذ وضع الرموز المناسـبة لتلك البنـية .

لقد اكتشف الأثريون الـكثير من لوحات الطين الأكادية نقشت عليها قـوائم من اسماءالاشياء المختلفة باللغة السومرية وما يقابلها من الاكادية ، وكذلك عند الفينيقيين من أهل أغاريت وجدت عندهم قواميس بأربع لغات ، فهذا يدل على اهتمام الانسان منذ أبعد العصور بدراسة مفردات اللغة ، الا انه لا ينبغي أن تنزل هذه الدراسـة منزلة التحليل الفينيقي الذي سـبق ذكره لمـا ترتب على هـذا الاخير من قلب عميق لاوضاع المعـرفة وما أثاره من الدراسات في مادة اللسـان .

---

(11) لقد بحثنا هذا الموضوع بحثا طويلا فاتضح لنا بعد مقارنتنا لعدة مخطوطات سريانية قديمة أن أقدم نص سرياني يحمل نقطا للدلالة على الحركات ، يرجع عهده الى القرن الثامن الميلادي (وقد نبه على ذلك لاول مرة مارتين فى مقال له فى المجلة الاسيوية سنة 1875 ، وكذلك علماء آخـرون) . وأقـدم مخطوط سرياني منقوط وصل الينا يرجع الى سـنة 768 م . وقال مارتين أن يعقوب الرهاوي (المعاصر لابي الاسود) لم يشر أبدا فى تآليفه اللغوية الى وجود نقطسرياني فى زمانه (انظر مقاله ص 137 وما بعدها) . وأقدم من وصل الينا منه كلام فى هذا الصدد هو حنين بن اسحاق (المتوفى في سـنة 260 هـ ــ 876 م) فان له كتابا فى النقـط السرياني يوجد بالمتحف البريطاني تحت رقـم (28876) . أما المصاحف القرآنية فأقدم نسـخة منقوطة وصلت الينا (بطـريقة النقـط التي وضعها العرب) يرجع عهدها الى أوائل القرن الثاني الهجري ومهما كان فانها أقدم من المخطوطات السريانية المنقوطة .

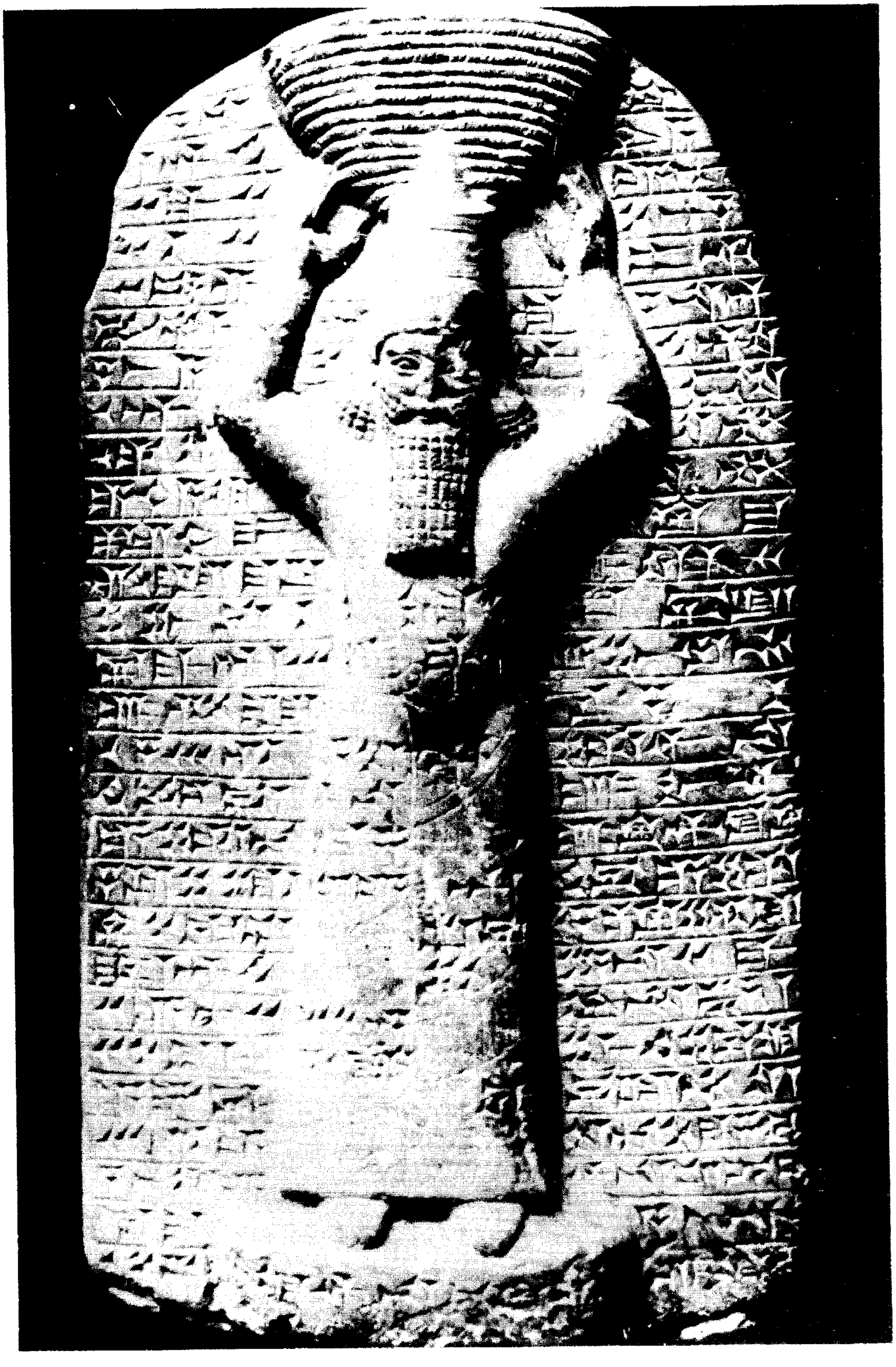

نص باللغة الأكادية بالخط المسمارى
في وسطه الملك أشور بن بعل
(صورة من المتحف البريطانى)

العـلوم اللسانية عند قـدماء الهنـود :

بعد الافتراضات التي قدمناها عن اقدم تحليل لغوي قام به الانسان ، وهي في الواقع اقــرب الى الحقـقة منها الى محض الافتراض لثبوتها عقلا — وعدم معارضة النقل لها أيضا — فبعد هدا ندخل الان في حيز الحقائق الثابتة بالضرورة لا بالاكتساب فقط كما ندخل في نفس الوقت في حيز الانجازات الانسانية الجليلة القدر التي لا تزال ترن لها معاهد العــلم في القرن العشرين . تلك هي تحقيقات الهند في ميدان اللسانيات والصوتيات . وهي لا محالة اول تحليل شامل عميق للظواهر اللسانية . وقد بلغ من العمق ما أثار اعجاب العلمـاء الغربيين عندما اكتشفوه . وسنحاول أن نشير الى أهم مفاهيمه ههنـا ، اذ لا يمكن أن نستوعب ، في بضع صفحات هـذه الآثار الجليـلة .

ليست اللسانيات الهندية القديمة الا جزءا — عظيما على كل حال — مما أنتجته من المعــارف الاجيال المتوالية من علمـاء الهـند : في ميادين الطب ، والفلك ، والرياضيات ، وغيرهــا من العلوم التى نوه بعظمتها بعض العلمــاء العرب (منهم : البيروني ، في كتابه : تاريخ الهنـد) . وذاعت كل هذه العــلوم عبر الزمان وخارج الهند بلغــة واحدة : السنسكريتية ، وهي لغة لبعض أهلها كتب عليها البقاء لانهــا كانت لغــة الـ « ركفيدا » وهي الـكتب الهندية المقدسة فأصبحت لغة الثقافة والعلم أيضا (12) وبقيت على هذه الحال الى أن هددتها صروف الزمان بذهاب الفصاحة عن السنة أهلها ، وما ترتب على ذلك من سوء فهم للكتب الدينية والثقافية القـديمة ، بل وعدم فهمها تماما عند اكثرهم ، فوقع عند ذلك ما يقع عــادة في مثل هذه الظروف وعند وجود الألمعي من الامــراء والعلماء ، ومــا ذلك الا البحــث الموضوعي الواسع لتدوين اللغة الفصيحة (13) ثم تحليل أنحائها (14) من جميع وجوهها : لفظا ومعنى إفرادا وتركيبا . ولا نعرف بالضبط من هو الواضع أو الواضعون الأولون ، غير أنه قد وصل الى عهدنا كتاب جليل جدا من أحد نحاتهم ، وهو كتاب : **الأست — أدهيايي** (15) معناه : الـكتب الثمانية ، الفه اللغوي النحوي المشهور **بانيني** (عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) ، ويظهر من كلامه أن أكثر ما يقوله كان قد سبقه اليه عدد كبير

---

(12) وبذلك اتسع نفوذها حتى عند من كان لا يدين بدين أهلها من الهنود وكذا في خارج بلادهم لاهتمام الشعوب بالعـلم الهندي .

(13) قارن بما يدل عليه اسم هذه اللغة «السنسكريت» معناه : مالا نقص فيه ولا عيب — ما ليس فيه لحن

(14) جمع « نحو » بمعنى الضرب من الكلام وبهذا المعنى استعمله لغويونا . أنظر **كتاب سيبويه** في كثير من أبوابه : « هذا النحو من الكلام » (43 ، 236 ، 242 الخ ...) ويؤدى هذا اللفظ ما تؤديه الكلمة الانكليزية : Item (فى اصطلاح اللسانيات الحديثة) .

(15) هذه الهاء التي كثيرا ما تتبع الحروف ليست هي في ذاتها حرفا بل شبه نفخ يخرج مع الحرف .

من النحاة الهنود (16) فهذا يدل على أن نحوهم (17) أقدم من هذا العهد . وهو يتألف من اربعة آلاف « سوترة » ويعنون بذلك ما نريده نحن بجوامع الكلم ، وهي بالفعل عبارات في غاية الايجاز حتى يصعب فهمها على اللغويين المحدثين (ممن يعرف السنسكريتية) (18) . ولهذا الكتاب شروح كثيرة أشهرها وأهمها الـ « **مها بها سهيا** » معناه : (الشرح الكبير) للنحوي الهندي المشهور « **باتنجالي** » (عاش حوالي 150 قبل الميلاد) (19) واستمر البحث عدة قرون بعد ذلك حتى في زمان ازدهار الحضارة العربية ، ففي القرن السابع بعد الميلاد ظهر كتاب « **فاكيا باديا** » لمؤلفه **بهاترهاري** في علم اللسان السنسكريتي ، وهو كتاب مفيد جدا ، ولقد بلغ عدد الكتب الهندية اللغوية ما يفوق الألف (20) وكانت عندهم ما لا يقل عن عشر مدارس ومذاهب في النحو واللغة ، وهذا عمل عظيم ما رأينا له مثيلا فيما قبل ولا فيما بعد الا ما أنتجه الفكر العربي القديم والفكر الاوربي الحديث (21) .

بنى الهنود دراساتهم اللغوية على المشاهدة والاستقراء ولم ينطلقوا كما سيفعله الفلاسفة اليونانيون من محض التأمل ، فما خرجوا الى تلك المعارف من نظرية سابقة (22) بل تصفحوا جزئيات لغتهم ومجاري كلامهم من مشافهة بعضهم لبعض (= بهاسا) ، وبالنظر في النصوص القديمة (شنداس) فكانت مناهجهم بذلك علمية حقيقة ، مستوفية لجميع شروط العلم كما نفهمه اليوم (23) . أما صفات هذه المناهج فيما يخص صنعة التحليل فكانت على ما يتطلبه المنهاج الوصفي الذي ينظر الى حالة اللغة في زمان معين ولا يلتفت الى التحولات التي تطرأ عليها على ممر الايام ، فهي مناهج بنوية (Structural) كما يفهمها اللغويون اليوم وعلماء العرب من قبلهم . ومن أجل الوصول الى البنية يحتاج الواصف الى أن يكتشف المراتب والمستويات اللغوية التي نشأت عنها البنية ، وأن يحل كل عنصر من عناصر اللغة محله من تلك المراتب ، وهذا يستلزم عدة عمليات تحليلية يجريها على مدارج الكلام ، وفي كل هذا يعتمد على **مبدأ عدم التبعية** ، فكلما لاحظ أن هذه القطعة الصوتية من الكلام أو تلك غير تابعة ولا لاحقة بقطعة أخرى بل مستقلة عنها تؤدي الغرض المنوط بها

---

(16) أحصى بورنال (Burnell) عدد الذين ذكرهم بانيني وهم 68 شخصا ، أنظر : On the Aindra System of Sanskrit grammarians في Rktantra ط. منكالور 1879 ، ص 32) .

(17) النحو والبحث في اللغة يسمى عندهم « فياكرانا » .

(18) طبع كتاب بانيني في لايبزيش 1887 ، نشره ونقله الى الانكليزية Böhtling ونشره بعد ذلك بعدة لغات) وقد اطلع الأوربيون على هذا الكتاب (وكتب أخرى) قبل أن يطبع ، بسنين طوال (أواخر القرن الثامن عشر كما سنراه) .

(19) طبع في بومباي 1892 — 1909 ، نشره F. Kielhorn) .

(20) انظر : W. Sydney Allen : **Phonetics in Ancient India** ، لندن 1953) ص 1 — 2 .

(21) أما النحو العربي فقد أحصى السيوطي 2209 شخصا ممن ألف أو كان له كلام في اللغة والنحو من أول ظهور النحو حتى القرن التاسع الهجري . وأما اللسانيات في الغرب فقد سجل مؤتمر العلوم اللسانية الذي انعقد في بوكورشت في سنة 1967 أسماء الباحثين والواردين من هذه البلدان ما يقرب الألفين .

(22) انظر : L. Bloomfield : **Language** (1933 New-York) ص 11 ، 1 — 6) .

(23) واستمر هذا الاستقراء الى أن زالت المشافهة باللغة السنسكريتية (بعد القرن الثالث ق. م) . فقامت الدراسة الفيلولوجية بعد ذلك مقام المشاهدة المباشرة .

بنفسها دون اللجوء الى شيء آخر أعطاها عندئذ صفة الوحدة واعتبرها هي ونظائرها عناصر أولية بالنسبة الى مستواها . ويسمي النحاة الهنود هذا المفهوم ((**ميرا كانكسا**)) ومعناه : ما لايقتضي ولا يستلزم شيئا (وضدها : الـ ((**أكانكسا**))) (24) أما كيف يتوصلون الى اثبات العناصر الاولية المستغنية بنفسها ، فهذا يكون غالبا بوسائل بنوية (25) . فبالنسبة الى المستوى الاعلى يحددون فيه الوحدات التي نسميها نحن جملا مفيدة بالاعتماد في نفس الوقت ، على الوقف ((**أفاسانا**)) (26) أي على وقفات المتكلم وسكتاته ، وعلى أنواع النغمات والنبرات الكلامية ، اذ قد تعرف بها مبادىء الجمل ونهاياتها وعلى العلامات الدالة على أصنافها : انشائية كالنداء ، والاستفهام أو خبرية . فاذا نزلوا الى ما هو أدنى من هذا وهو مستوى ما نسميه نحن الكلم والمفردات ، يسمى عندهم : (بادا) استدلوا عليها بما يدخل عليها من اللواحق الخاصة بكل نوع منها وبما يعتريها من التغيرات الصوتية في أوائلها وأواخرها بسبب تركيبها (= ساندهي) — حالة الادراج — مع غيرها من الكلمات . فاذا تم لهم ذلك تعرضوا للبنية الداخلية للمفردة ـ بعد التمييز بين فصولها (أسماء وأفعال وأدوات اضافة وأدوات ربط) ـ فيصل بهم التحليل الى العنصرين الهامين اللذين تمتاز بهما اللغات الهندية الاوربية واللغات السامية ، وهما الاصل ((**دهاتو**)) (: المادة الحرفية الثابتة) والزائدة ((**براتيايا**)) (وهو كل ما يزاد على الأصل من العناصر الدالة على المعاني الفرعية ، فتضاف هذه المعاني الى المعنى الأصلي ، كما أضيفت الفاظها الى اللفظ الاصلي ، وذلك مثل حروف الزيادة في العربية وعلامات الاعراب وغيرها) . ثم احصوا الاصول الفعلية وغير الفعلية ، وحددوا أنواع اللواحق والعلامات بالاعتماد على القرائن والسياق وبمجاريها في الكلام . وهم أول من استعان في هذا التحليل بالعلامة العدمية (27) وسنرى أنها من أهم ما يلجأ اليه اللسانيون اليوم في تعيينهم لماهية العناصر اللغوية وتشخيص كياناتها . وبعد هذا يصل الباحث الى مستوى الوحدات غير الدالة وهي مرتبة القطع الصوتية الصغرى القليلة العدد التي ينتهي اليها التحليل والتي يتركب منها جميع الكلام (ويسمى الحرف عندهم : ((**اكسهارا**)) ومعناه : ما لا يتلاشى وينحل) واستخرجوا هذه الحروف من كلامهم بنفس الكيفية التي وصفناها عند كلامنا عن الكتابة الهجائية . وينبغي أن نشير بهذا الصدد أن الهنود استعاروا النظام الهجائي من الساميين (ولم يتفق بعد العلماء في تحديد

---

(24) يناسب هذا المفهوم شيئا ما ما يسمى عند سيبويه بالاستغناء (ويستعمل أيضا فعل « غنى ، يغني ») انظر الكتاب 7 ومواضع أخرى .

(25) نسبة الى «بنية» : اتبعنا في هذه النسبة رأي يونس بن حبيب (النحوي) الذي يقول في ظبية : ظبوي وهو أخف من ظبيي ووجهه الخليل . (انظر **الكتاب 2 ، 74**) . أما المقصود منه فهو الوصف الذي تتصف به الان مناهج المدارس الملقبة بالـ Structuraliste وهي التي لفتت أنظار الباحثين الى ضرورة الرجوع الى دراسة اللسان في حالة زمانية معينة وعلى هذا فتحليلاتها تتعرض فقط للصورة الناتجة عن التراكيب ولمجرى هذه الصورة وكيفية تأديتها لمهمة التبليغ (سنطيل الكلام عن هذه المدارس في الابواب الاتية ان شاء الله) .

(26) سيتضح لنا فيما بعد أهمية هذه الوسائل التحليلية بالنسبة الى المدرسة « الذهنية » الأوربية ومدرسة الاستغراق الأمريكية .

(27) هي عند العرب أصل مهم من أصولها المنهجية لا بالنسبة الى اللغة فقط بل بالنسبة الى جميع العلوم الدقيقة والتجربية وهي مفهوم رياضي ونرجح أن الخليل هو أول من استخرجه من مفهوم الصفر بعد أن أدرك دوره في علم العدد فطبقه على علوم العربية وبالخصوص النحو والعروض (راجع كتابنا في علم العربية) .

المصدر السامي الحقيقي ، فمن قائل انهم اخذوه عن الفرس وهؤلاء عن الآراميين — والخط الآرامي وجميع الخطوط السامية هي من الاصل الفينيقي - وقائل آخر أن مصدر خطهم هو اليمن) . الا أن هذه الكتابة (كتابتان في الحقيقة : البراهمي ، والكهاروستهي) لم تظهر عندهم قبل ظهور الدراسات اللغوية التي هي موضوع كلامنا الان . واحتاج الهنود الى أن يكيفوها حتى تناسب خصائص لغتهم .

هذا فيما يخص منهاج التحليل البنوي العام ، أما تحليلهم لاصوات لغتهم ، فأغرب وأطرف ! والذي حملهم على استقصاء البحث وعلى التدقيق في الوصف الصوتي هو اهتمامهم الكبير بالنطق الصحيح والتلفظ الفصيح الذي تناقله العلماء جيلا بعد جيل في تلاوة الفيدا فوضعوا لذلك قوانين لتجويد « القراءة » على مثل ما فعله القراء والنحاة العرب ، وأول شيء أعجب به الاوربيون عند اكتشافهم لكتبهم اللغوية هي هذه الصوتيات ، واعجب منه هو أن تكون الدراسات المقارنة التطورية التي وضعها الغربيون قد انطلقت من مفاهيمها الدقيقة ، ولم ير المؤرخون لعلوم اللسان في ذلك سببا آخر غير افتقارهم اليها ، اذ لم يكن لديهم منذ أن انشىء النحو اليوناني ما يمكن أن يماثلها (28) . يقول الهنود : ان الكلام يعتمد كله على الـ « شفارا »أي النفس المحدث للصوت أو بالاصح الهواء الحامل للصوت — صوت الحلق — وهو عندهم بمنزلة أصوات الحركات وحروف المد عندنا الا أن هذا النفس الصائت لا يبقى في الكلام على حالة واحدة ، فاذا نفذ الى التجاويف التي هي فوق الحنجرة تغير بسبب ما يحدث في مختلف الاماكن من ضغط عضو على عضو ، وهذا يسمونه الـ «سبارْسا» (= التماس والضغط) وينسب حينئذ الصوت الناتج عن هذا الضغط الى المكان الذي حدث فيه ، وهكذا قسموا حروفهم الى « كانتهيا » = حلقي و « تلافيا » = حنكي و « موردهانيا » = دماغي (بتقعيس اللسان ، أي ادخال ظهره ورفع طرفه الى وسط الحنك) و « دانتيا » = أسناني و « أوستهيا » = شفوي . ويصير النفس بذلك معلما بعلامة الموضع الذي وقع فيه الضغط ويسمى عندئذ : « فيانجانا » ويقابل بذلك الـ « شفارا » المجرد الذي ليس الا نفسا صائتا . وللهنود تقسيمات أخرى تكمل هذا التقسيم الذي بني على ما يسميه العرب بالمخارج «شتهانا» فقد لاحظوا أن الاصوات اللغوية تختلف أيضا باتساع مخارجها ، فهذه الـ «سبارْسا» تحدث بضغط أماما يسمى بالـ « أوسمان » (= معناه النفس غير الصائت) فهي تحدث بضغط أقل من هذا ويخرج معها نفس ونفخ من غير صوت من الحنجرة . وهناك الـ « أنتاهستها » (= المتوسطة) فهي أصوات لا هي مطلقة ولا مضغوطة ولا منفوخة بل بين الـ «شفارا» المحضة والـ « سبارْسا » الشديدة . ثم ميزوا بين التي يصحبها صوت الحنجرة (= گهوساڤانْت) والتي لها (زيادة على هذا) صدى في خرق الانف (أنوناسيكا = حروف الغنة) وبين التي ليس لها ذلك تماما (اگهوسا) (انظر الجدول

---

(28) قال بلو مفيلد من اللغويين الأمريكان المشهورين : « أهم من هذا (اكتشاف الشبه بين السنسكريتية واللغات الأوربية) هو ما لمحه الأوربيون من البنية اللغوية وذلك بفضل النحو الهندي الدقيق المنتظم . وما استطاعوا حتى ذلك الوقت أن يلمحوا الا بعض المشابهات المبهمة المائعة لأن ما كان ذائعا آنذاك من النحو كان مبنيا على مثال النحو اليوناني ولم يكن ذلك كافيا لاظهار خصائص كل واحدة من لغاتهم . فالنحو الهندي هو الذي علم الأوربيين كيف يحللون أبنية كلامهم (المصدر المذكور) . وقال فيرث اللغوي الانكليزي المعروف : « لو لا النحاة والصوتيون الهنود الذين عرفنا اياهم العالم الانكليزي وليام جونس لصعب علينا الان أن نتصور مدرستنا الصوتية التي ظهرت في القرن التاسع عشر » .

النظام الصوتي السنسكريتي

كما تصوره اللغويون الهنود

	اتّساع المخرج							
المخرج (شتهانا)	سّپارْسا (ضغط ← حبسية)					أوشمان نَفَس ← تسريبية	أنتهستها (بين بين)	سپارا صوت حنجرى مطلق)
كانتهيا (حلقى)	ك (k)	كه (kʰ)	گ (g)	گه (gʰ)	ن (ṅ)			فتحة (a)
تالاڤيا (حنكى)	چ (c)	چه (cʰ)	ژ (j)	ژه (jʰ)	ن (n̮)	س (ś)	ى (y)	كسرة (i)
مورد هانيا (دماغى)	تٜ (ṭ)	تٜه (ṭʰ)	دٜ (ḍ)	دٜه (ḍʰ)	نٜ (ṇ)	سٜ (ṣ)	ر (r)	ر (ṛ)
دانتيا (أسنانى)	ت (t)	ته (tʰ)	د (d)	ده (dʰ)	ن (n)	س (s)	ل (l)	ل (ḷ)
أوستهيا (شفوى)	پ (p)	په (pʰ)	ب (b)	به (bʰ)	م (m)		ڤ (v)	ضمة (u)
الجهارة والغنة	أگهوسا (مهموس)		گهوساپانت (مجهور)		أنوناسيكا (أغنّ)	أگهوسا (مهموس)	گهوساپانت (مجهور)	

ملاحظات : 1) الرموز التى بين قوسين تمثل المصطلح الخطي الدولى الذى يستعمله علماء السنسكريتية (ماعدا ṅ و n̮).

2) النقطة تحت الرمز تدل على صفة التقعيس (إدخال ظهر اللسان ورفع طرفه إلى وسط الحنك جهة الدماغ).

3) " چ " ترمز إلى النطق بتاء وشين متحركتين بحركة واحدة (مثل "چلبى " = Tšalabī) ورمزها الدولى : C أو Ĉ .

4) " ṅ " ترمز إلى غنة مفخمة . و n̮ الى نون مقرّبة الى مخرج الياء .
أما "ḷ" و "ṛ" فيرمزان إلى حركتين لا إلى حرفين تامّين : الأول هو صوت حركة تخرج من حافتي اللسان (كأنه لام) والثانى هو صوت حركة تخرج بارتعاد طرف اللسان (كأنه راء).

الذي يمثل هذا النظام التحليلي) . هذا وعرفوا أيضا خاصية المـد (طول الصوت) في التمييز بين الحروف وقاسوه ، كما حللوا بكيفية دقيقة جدا العناصر النغمية والبنوية التي لها دور في التمييز الصوتي أيضا (ليس هذا موجودا في العـربية) ولم يكتف اللغويون الهنود بالوصف التحليلي ، بل تجاوزوه الى البحث النظري الصرف ، ولهم في هذا الميدان بعض المكاسب سبقوا بها أيضاغيرهم الى النظريات الحديثة . وذلك مثل نظريتهم في ما هية الصوت اللغوي ، وهي نظرية الـ « سبهوتا » . فقد انتبهوا الى الفرق القائم بين الصوت كظاهرة فيزيائية عامة ، والصوت كظاهرة فيزيائية فيزيولوجية خاصة بالـكلام ، وبين الصوت الحامل لمدلول وهو ما يدركه المتكلم والمخاطب من الصفات السمعية الصوتية التي **تكفي** لفهم المدلول . فالصوت عموما هو الـ « دهفاني » والصوت الـكلامي كلفظ هو الـ « سـبدا » وأما الصوت الدال الذي لا يتغير فهو الـ « سبهوتا » ومعناه الاصلي هو التبجس والانتشار (ضد الانطواء) وفسر بعض اللغويين (الخبراء باللغة السنكريتية) مناسبة المعنى الاصطلاحي للمعنى الوضعي بأن المدلول يتبجس « وينتشر » في الذهن أي يتبادر اليه بمجرد استماع السامع للسبهوتا أي الصوت الدال (29) .

وسنرى فيما بعد أن اللسانيات الهندية قد بلغت من الدقة العلمية وسعة المعلومات (وما أشرنا هنا الا الى القليل منها لضيق المكان) ما لم تبلغه الحضارة اليونانية اللاتينية في البحث اللغوي فلسفيا كان أو نحويا تعليميا أو نظريا اللهم الا فيما أخذته من اللسانيات العربية ، وأن اللغويين الغربيين ما استطاعوا أن يصلوا الى الفهم الصحيح للمفاهيم الصوتية ــ كمفهومي الاصل والزائد ومفاهيم الصوتيات ــ الا بعد اطلاعهم ــ كما قال **بلومفيلد وفرث** ــ على التراث الهندي .

العلوم اللسانية عند قدماء اليونانيين :

استعار اليونانيون هم أيضا من الفينيقين كتابتهم الهجائية ، الا أن لغتهم هي من الفصيلة الهندية الاوربية ، فلا يرتكز نظامها في بناء أصول كلماتها ، كما هو معروف على الحروف الجوامد (consonnes) (30) وحدها مثل اللغات السامية (31) بل تحتاج زيادة على الجوامد الى الحروف المصوتة (voyelles) وسبب ذلك هو عدم استقرار حروفها الجامدة على حالة واحدة في تصاريف الـكلمة واشتقاقاتها بخلاف اللغات السامية فان الحروف الاصلية التي تدخل في بناء كلماتها لا تتحول كثيرا اللهم الا ما يعتريها من العوارض مثل ما يصيبها أحيانا من الادغام والقلب المكاني (وهو قليل جدا بالنسبة الى ما هو سالم المـادة) وما يصيب حروف العـلة من القلب والحذف وغير ذلك وهو قليل أيضا ، بالاضافة الى المواد الصحيحة الثابتة ، وهذا الثبوت الذي فقدته الاصول الهندية الاوربية منذ زمان بعيد وحافظت عليه الاصول السامية لسبب

(29) انظـر ما قاله : J. - L. Mey : **Some Reflexions on the Parallelism between old Indian and Modern Linguistics** (in **Norsk Tidisskrift for Sprogvidenskap** Bind XIX, Oslo 1960, p. 147 sqq).

(30) أنظر الهامش 34 فيما يلي .

(31) أثبتت المقارنة العلمية بين مختلف هذه الألسنة أن اللغات الهندية الأوربية كانت بنيتها القدمى أو بنية اللغة البائدة التي تفرعت عنها على مثل بنية اللغات السامية من حيث ثبوت المادة الأصلية واستقرار الجوامد فيها فأصابها تغيير عميق بحكم انتشارها واختلاط أصحابها بغيرهم من الامم والشـعوب .

مجهول (والعربية بصفة خاصة) (32) كان الدافع الاساسي الذي دفع الفينيقيين الى الاكتفاء ، في الدلالة الخطية على الحروف الجوامد دون المصوتة ، لقدرة القارىء في غالب الاحيان على فهم ما يركب منها من الكلمات (33) ، ولكن كيف استطاع اليونانيون أن يجعلوا من هذا الخط الذي لا يمكن أن يفي ، رغم هجائيته ، بما تحتاج اليه بنية لغتهم ؟ لقد اجاب بعض العلماء عن هذا السؤال بضرورة وضع ثان مكمل لما وضعه الفينيقيون وهو زيادة علامات للمصوتات ، وهذا يقتضي أن اليونانيين قد تمكنوا من اختراع الكتابة الالفبائية « الحقيقية » وبالتالي الى تحليل كامل لمدرج الكلام بما فيها المصوتات ، وهذا ما لم ينجزه أصحاب الخط الهجائي .

ولكن اذا بحثنا الموضوع بتدقيق رأينا أن أكثر العلامات الدالة على المصوتات في الالفبائية اليونانية مأخوذة من الكتابة الفينيقية ، وكانت تشير في الاصل الى حروف حلقية لا يعرفها اليونانيون فنطقوا بها في أول الامر وكأنها حروف مصوتة فصارت : الحيت (= الحاء في العربية) على لسانهم ممدودة ويدل اسمها « éta » بوضوح على أن أصلها « حيت » الفينيقية ، وكذلك الالف التي كانت همزة فتركوا الحرف الحلقي وخصصوا رمزه للمصوت الذي له صوت الفتحة عندهم ، وهكذا (انظر جدول التكييفات في الصفحة التالية) . أما الاصوات الخاصة باليونانية فانهم وضعوا لها رموزا جديدة ، وهي خمسة أصوات .

وان لم يمكن أن نرجع سبب تكييف اليونانيين للكتابة الهجائية وتصييرهم اياها على الشكل المعروف اليوم ، الى نوع من التحليل العلمي الدقيق يكونون قد اهتدوا اليه بمجرد ما اقتبسوا الخط الفينيقي ، فان لليونانيين فضلا آخر لا يقل عنه اهمية ، وهو أنهم قد اهتدوا بالفعل — بعد تكييفهم هذا لا قبل — الى طريقة من التحليل فبنوا عليها تقسيمهم لاصوات اللغة الى « aphôna » و « phonéenta » (34) الذي صار بعدهم أساسا لكل تحليل تعالج به اللغات الاوربية وعمادا لكل نظرية لغوية

---

(32) لا شك أن انعزال هذه اللغات في شبه الجزيرة العربية في آلاف السنين هو أحد العوامل لا العامل الوحيد — التي ساعدت على بقاء البنية القديمة وقد لوحظ أن جميع اللغات السامية التي خرج بها أصحابها الى خارج الجزيرة أو ما يجاورها قد أصابها تغيير أعمق مما أصاب العربية ، فقد فقدت الأكادية أكثر حروفها الحلقية . وكذلك الاعراب ، فان أكثر هذه اللغات قد ذهبت عنها علاماتها الاعرابية .

(33) ولاقتصار الخط الفينيقي على الجوامد سر آخر جد مهم — قد يتناساه الكثير من الدعاة الى اصلاح الخط العربي اليوم — وهو الاهتمام باظهار وابراز المادة الاصلية في كتابة الكلمة وبالتالي التمييز بين المادة والصيغة وهو أهم ما تتصف به اللغات السامية . وعليه فلابد في كل اصلاح من مراعاة هذه الصفة الجوهرية اذ الخط تابع للفظ وهو صورة لبنية اللغة .

(34) ترجمها أصحاب بيت الحكمة في زمان المأمون بكلمة « لا مصوت » و « مصوت » ثم استبدل ابن سينا الكلمة الأولى بكلمة « صامت » والأول هو ما يدل عليه الاصطلاح النحوي العربي « الجامد » الا أن هذه التسمية العربية تنظر أو نظر واضعها عند ما وضعها الى كيفية خروج الحرف الصامت لا الى صفته الصوتية ويقابلها عند النحاة وأهل الأداء الحرف اللين أو الهوائي أو الذائب (يجمع كلاهما على جوامد وذوائب . انظر **اعراب القرآن** المنسوب الى الزجاج ط. القاهرة 1964 ، 1 ، ص 241). كما استبدل الرواقيون (Stoïciens) كلمة aphona بكلمة Symphona اذ اتضح لهم أن « اللامصوت » يجري معه الصوت (= صوت الحنجرة) فسموه هكذا لأنه لا يحدث أبدا وحده بل مع المصوت (- Sym تدل على المصاحبة في لغتهم) . وهما في الفرنسية (عن اللاتينية التي أخذتهما عن اليونانية) voyelle/consonne .

مقارنة بين الأبجديتين الفينيقية واليونانية

جدول التكييفات الصوتية والخطية

الأبجدية الفينيقية القديمة: صورة الحرف	صوته	اسمه	الأبجدية اليونانية القديمة: صورة الحرف	صوته	اسمه	التكييف الصوتي	التكييف الخطي
𐤀	همزة	Alf	A	فتحة	Alpha	حذف حلقية الحرف وتخصيصه للصوت المذكور	تدوير الرمز ربع دائرة إلى اليمين
𐤁	ب	Bēt	B و ϭ	ب	Bēta	إبقاء الصوت لوجوده	تدويره نصفا الى اليمين
𐤂	ج (گ)	Gaml	Γ	ج (گ)	Gamma	كذلك	قلبه إلى اليمين
𐤃	د	Delt	Δ	د	Delta	كذلك	لا شيء
𐤄	هـ	Hē	Ε	فتحة ممالة	Epsilon	حذف حلقية الحرف وتخصيصه للصوت المذكور	قلب الرمز يمينا
𐤅	و	Waw	F	ڤ	(1)Digamma	تحوّل الى فاء مجهورة	توجيه الهلال إلى اليمين
𐤆	ز	Zay	Z	(د ز) كحرف واحد	Dzēta	إبقاء صوته	إمالة العمود يمينا
𐤇	ح	Ḥēt	𐤇 ثم H	فتحة ممالة ممدودة	Êta	حذف حلقية الحرف وتخصيصه للصوت المذكور	اختزال الخطوط الأفقية
𐤈	ط	Ṭēt	⊗ ثم ⊖	ت مع نفخ	Thēta	حذف التفخيم واستبدال بالفتح	اختزال المتعاقفين
𐤉	ى	Yod	ϟ ثم I	كسرة	Iota	تخصيص الرمز بالكسرة	تقويم التمعّج
𐤊	ك	Kaf	K	كَ	Kappa	إبقاء صوته	تدوير الرمز نصفا
𐤋	ل	Lamd	Λ ثم Λ	ل	Lambda	كذلك	قلبه يمينا
𐤌	م	Mēm	M ثم M	م	Mu	كذلك	قلبه يمينا ثم تدويره إلى اليمين ايضا
𐤍	ن	Nūn	N ثم N	ن	Nu	كذلك	قلبه يمينا
𐤎	س مع تقعيس اللسان	Semk	Ξ ثم Ξ	(كس) كحرف واحد	Xi	استبدال الصوت السامي بالصوت اليوناني	اختزال الخطوط
𐤏	ع	ʿAyn	O	ضمة مفخمة	Omikron	حذف حلقية الحرف وتخصيصه للضمة	لا شيء
𐤐	پ	Pē	Γ ثم Π	پ	Pi	إبقاء الصوت	قلب الرمز يمينا ثم استبداله بآخر
𐤑	ص	Ṣādē	M	س	(1)San	حذف التفخيم	تدويره نصفا الى اليمين
𐤒	ق	Qof	Ϙ	ك	(1)Koppa	حذف التفخيم وتحوّل الصوت إلى كاف	لا شيء
𐤓	ر	Rēš	P	ر	Rô	إبقاء صوته	قلبه إلى اليمين
𐤔	ش	Šīn	Σ	س	Sigma	تحويله إلى سين	تدويره نصفا إلى اليمين
X أو +	ت	Tau	T	ت	Tau	إبقاء صوته	اختزال الصليب
هذه الأصوات لا وجود لها في الفينيقية فوضع لها اليونانيون رموزا خاصة			Y ثم V ثم Υ	ضمة مشربة كسرا	Upsilon	(1) استعمل اليونانيون هذه الرموز الثلاثة التي كانت تشير في الأصل الفينيقي إلى أصوات غير موجودة في لغة اليونان ثم ما لبثوا أن تركوها (وبقيت عند البعض منهم) وذلك إما لاضمحلال الصوت مثل (v) وإما لوجود رمز آخر يشير إلى نفس الصوت مثل M الذى مدلوله صوت السين فاستبدل بـ Sigma (Σ) وكذلك الـ Koppa Ϙ لوجود الـ Kappa .	
			Φ	پ مع نفخ	Phi		
			X	ك مع نفخ	Khi		
			Ψ	(پس) كحرف واحد	Psi		
			Ω	ضمة ممدودة	Oméga		

عند علمــاء أوربا . وتفطنوا في نفس الوقت الى أن الصامت لا يمكن أن ينطق به الا مع مصوت ، وسموا المجموعة المتكونة من الصامت والمصوت « syllabé » (معناها : « المجموع من الاشياء » وترجمها العرب بكلمة كان استعملها النحاة في اصطلاحهم لـكن بمعنى آخر وهي المقطع) وقالوا ان المصوت يمكن ان ينطق به وحده فيكون عند ذلك بمنزلة مقطع واحد (35) ، وكل هذا قد وقع قبل ظهور الفلسفة اليونانية (اذ توجد هذه المفاهيم في نصوص ترجع الى ما قبل القرن الخامس) .

اما مساهمة هذه الفلسفة في البحث اللساني فكانت جد عظيمة وحقيقة بأن يلتفت اليها كل دارس لعلم اللسان بل كل مثقف ، لا لصحة ما توصلت اليه من نتائج فان المفاهيم والنظريات والمناهج لا تصح بصفة نهائية أبدا بل لعمق تأثيرها وامتداد هذا التأثير الى جميع الحضارات التي تلتها في الوجود (الرومانية والفارسية والهندية والبيزنطية والاسلامية والاوربية والحضارة العالمية الحديثة) .

ان أقدم فيلسوف اخبرنا عن اهتمامات اليونانيين بمسائل اللغة وتطلعهم الى اسرارها هو افــلاطون في كتاب **قراطولوس** ويظهر أن المسائل المطروحة فيه كان يرجع عهدها الى زمان فيثاغورس (القرن السادس قبل الميلاد) والمسألة الرئيسية التي يدور حولها الـكتاب هي مسألة ما اذا كانت الاسماء طبيعية النشأة أم هي صادرة عن تواطؤ النــاس ؟ اي هل يرجع أصل الاصوات الدالة على الاشخاص والمعــاني الى الطبيعة نفسها ولا دخل للمتكلمين في وضعها أم يرجع الى ما يتواضع عليـه المتكلمون انفسهم ؟ وقــدم افلاطون هذه المسألة على شكل حوار كعادته، بين أشخاص ثلاثة : قراطولوس الذي يقول بأنه يوجد بالطبع (physei) فلكل شيء اسم سديد الدلالة مطابق تماما لمدلوله وليس للناس غيره سواء كانو يونانيين أم أعجميين (بالنسبة لهم) ، وارموجينس الذي يقول بأن لا مطابقة بين الاسم والمسمى الا بالوضع (thesei) فلو سمينا رجلا باسم فهو سديد وان سميناه باسم آخر فهو أيضا سديد . لانه لا تسميه بالطبع بل بالاستعمال والعادة . والشخص الثالث هو الحـكم الذي تحـاكم اليـه قراطولوس وارموجينس وتخيل افلاطون أنه شيخه سقراط . ولهذا الحكم رأي ثالث هو مزيج من الرأيين مع زيادات وتنقيحات ، وهو طبعا رأي أفلاطون نفسه . وسقراط هذا جد متحفظ ، فهو لا يجزم بأحد القولين بل يلينهما ويشكلهما بحيث يصبحان قولا واحدا مكيفا بما أدخله عليهما من آراء جزئية ، وكثيرا ما تكـون هذه الآراء المضافة مما كان يرتئيه افلاطون في فلسفته الخاصة به . ويتضح بذلك أن غرضه من هذا الـكتاب ليس هو عرض هذه المسائل اللغوية ، بل الاشارة الى نظريته للمعرفة . فهو يؤكد أن للمسميات حقيقة خارجة عن انفسنا وارادتنا ، ومن ثم فلا شك أن المطابقة القــائمة بينها وبين أسمائها هي مطابقة طبيعية نوعا ما ، فلكل صوت دلالة خاصة (ويستعين في ذلك ببــيان أصــول بعض الـكلمات) الا أن الاسمــاء لا بد لها من واضع ــ لا أي واحد تسنح له فكرة الوضع بل واضع واحد حكيم (أو يستلهم حكمته من الفيلسوف) . وان لم تحصل هذه المطابقة ــ وهو كثير وبذلك يناقض القولين الاثنين ــ فلتحكم الواضع غير الحكيم أو لتركه أحيانا الحكمــة المطـلوبة في ذلك .

(35) قد بينا في مقال لنا صدر في العدد الأول من مجلة **اللسانيات** حقيقة المقطع الفيزيولوجية واللغوية وليست هذه الحقيقة على هذا الجانب الكبير من البساطة .

واستمر الجدال حول هذه المسألة طيلة قرون (36) بعد أفلاطون (فتناولها أصحاب فيثاغورس والسوفسطائية والمشاؤون وديموقريطوس والرواقيون ، ثم كانت لهاأصداء عند الرومان نحاتهم وشعرائهم) . اما أرسطو تلميذ أفلاطون فقد اختار مذهب التواضع والاصطلاح ويظهر اختياره هذا في هذا النص من كتاب العبارة : « فالاسم هو لفظة دالة بتواطؤ . . (37) ، فأما قولنا بتواطؤ فمن قبل أنه ليس من الاسماء اسم بالطبع الا اذا صار دليلا فان الاصوات أيضا التي لا تكتب نجدها قد تدل على شيء مثل أصوات البهائم الا أنه ليس شيء منها اسما (38) » وقال أيضا : « وكل قول فدال لا على طريق الآلة (39) لكن كما قلنا على طريق المواطأة (40) » .

والتحمت بهذه المسألة مسألة أخرى خطيرة على مثل خطورتها وان كانت أقرب الى اهتمامات اللغوي منها الى اهتمامات الفيلسوف وتنحصر في هذا السؤال : هل الالفاظ موضوعة على نظام محكم تتناسب صيغها وموادها وتنسجم تصاريف كلماتها بعضها ببعض فتكون بذلك خاضعة لقوانين معقولة فيمكن لنا استخراج مثلها وانماطها بحمل بعض أجزائها على بعض أم هي طبيعية لا يستقر لها حال مثل جميع الاشياء المحسوسة الطبيعية التي لا تثبت أبدا على حالة واحدة وتخضع لاي قانون خضوعا مطلقا ، واذا كانت كذلك فكيف يجوز لنا أن نحمل بعضها على بعض ونتعرف على مثلها وليس لها مثل ولا أنماط ؟ فأما القول الاول فكان يسمىٰ بمذهب الـ **Analogia** ومعنى هذه اللفظة باليونانية : **التناسب** (هكذا باللاتينية أيضا) وترجمها فارو (Varro) النحوي بكلمة Proportio وأخذت من اصطلاح الرياضيين اليونانيين القدماء

---

(36) ونجد عند العرب جدالا شبيها بهذا فقد زعم عباد بن سليمان الصيمري المعتزلي (المتوفي في 250) أنه « لابد من مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله والا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح » (يسمى الآن هذا المفهوم الأخير بالنسبة الى المناسبة بين الدال والمدلول باللغة الفرنسية : arbitraire du signe ومعناه اعتباطية الدلالة الوضعية) . وجدال آخر قريب منه ومما طرحه اليونانيون هو الذي دار منذ أواخر القرن الثاني الهجري حول مسألة : هل اللغة الهام وتوقيف من الله سبحانه أم تواضع واصطلاح ؟ واستمر هذا الجدال مدة طويلة بعد ذلك الزمان .

(37) الترجمة لاسحاق بن حنين (انظر **منطق أرسطو** ، تحقيق ع. بدوي ، القاهرة 1948 ج 1 ، ص 60

(38) نفس المصدر . وقد وقع تصحيف في هذا النص : كتبت هذه العبارة : « التي لا تكتب نجدها ... » هكذا : « التي تكتب بجدها ... والصحيح ما أثبته الفارابي في شرحه لكتاب **العبارة** (تحقيق ولهام كوتش وستانلو مارو ، بيروت 1960 ، ص 31) .

(39) يفسر الفارابي هذا هكذا : « ... كل آلة فبنيتها وخلقتها خلقة يصدر عنها الفعل المطلوب بتلك الآلة . . كذلك اللفظ الدال لها كان آلة للقوة الناطقة فيبغي عند القائلين بالطبع أن تكون نفس صيغتها صيغة تعرف المدلول عليه وانما يكون ذلك بأن يحاكيها » . (نفس المصدر ، ص 50) .

(40) **منطق أرسطو** ، ص 63 وشرح الفارابي ، ص 59 .

(فيثاغورس هو أول من حددها) وكان يعني هؤلاء الرياضيون بها : الاربعة المتناسبة التي شكلها : $\frac{ا}{ب} = \frac{ج}{د}$. فكان المقصود من التناسب اللغوي عند النحاة من أهل هذا المذهب هو أن يجب تكافؤ الصيغ لتكافؤ أصناف الكلمات التي صيغت عليها وقالوا عنه أيضا : ان كانت بين عنصرين مختلفين نسبة ما وكانت هذه النسبة نفسها موجودة بين عنصرين آخرين فان القرابة التي بين هذه العناصر الاربعة تسمى analogos (41) وحملنا النسبة الثانية على الاولى تسمى analogia وقد أشار افلاطون الى اهمية هذه الطريقة التحليلية فى الرياضيات وتحمس لها أيما حماس ، وطبقها أرسطو وغيره على العلوم الاخرى كعلم الحيوان والذين طردوا استعمالها وتم على أيديهم اجراؤها فى النحو واللغة هم النحاة اليونانيون الحقيقيون ممن كان ينتمي الى مدرسة الاسكندرية اللغوية ، ولم يكونوا من الفلاسفة ، ولذلك حافظوا على المفهوم الرياضي الاصلي ولم يصبغوه الصبغة الفلسفية ، وسنتكلم عن هذه المدرسة فيما بعد . أما القول الثاني فكان يسمى بمذهب الـ anomalia ومعناه يقابل معنى الـ analogia فهو عدم التناسب أو عدم الخضوع لعملية التناسب (42) .

ويرى أصحابه أن في الاستعمال اللغوي وكلام الناس اختلافات كثيرة ، أما العناصر اللغوية نفسها عند الشخص الواحد فهى أيضا شديدة الاختلاف والشواذ فيها أكثر من أن تحصى ولذلك لا يمكن أن تضبط بهذا النوع من الضوابط ، فلا بد اذا من مراعاة الاستعمال ، فان كل عنصر في اللغة يجب أن يعتبر في ذاته والا يلحق بغيره

---

(41) مأخوذة من logos ولها عدة مدلولات لكنها متقاربة : قول ، كلام ، عبارة نطق (بمعنييه اللفظى والذهنى ، انظر الجزء الاول من هذه المقالة ص 1) بزيادة ana وهي مماتتصدر به بعض الكلمات اليونانية للدلالة على « قلب الشيء وجعل الاسفل مكان الاعلى » وهذا يشير الى الصيغة الثانية للنسبة الرياضية حـ ب = ا د .

(42) لهذه العملية شبه كبير بما كان يسميه أبو الأسود وعبد الله بن أبي اسحاق قياسا (ولا يمكن أن يكونا اقتبساها من أرسطو لانه لم يستعملها أبدا في صيغ المفردات والتراكيب ولا يمكن أن نفترض اقتباسها من كتب النحو اليوناني لأنهما ما أخذا ولا شيئا واحدا من تلك الكتب — وهذا باجماع العلماء — لأن القياس « **يستدعى دائما أمرين يضاف أحدهما للآخر ويقدر به** » وهذا معناه العام وهيهات أن يستفرغ كل ما يدخل فى مفهوم القياس الذي استعمله الخليل وسيبويه فان هذا المفهوم هو أقرب الى الرياضيات الحديثة منه الى الرياضيات الفيثاغورية وما الـ analogia الا جزءا بسيطا جدا مما يشتمل عليه (انظر فى هذا الشأن تحليلنا لهذا المفهوم العربي فى كتابنا « علم العربية وعلم اللسان العام ») . وننبه القاريء أن الاستدلال بالمثال (أو التمثيل) الذي يسميه أرسطو analogia أيضا (يسميه النحاة والفقهاء والمنطقيون العرب المتأخرون قياس التمثيل أو قياس الشبه) هو مفهوم استخرجه أرسطو من العملية الرياضية المشار اليها وأعطاه — كعادته ازاء المفاهيم الرياضية — صبغة فلسفية وأفقده صفته الرياضية الجوهرية فصار يقابل به السيلوجسموس (استنتاجه العقيم الذي سماه المترجمون قياسا أيضا — وياللأسف !) الذي يتنقل فيه من الكلي الى الجزئي والاستقراء — كما يفهمه هو — الذي ينتقل فيه من الجزئيات الى الكلي فيكون التمثيل عنده استدلالا بجزئي على جزئي لشبه قائم بينهما . وهذا بعيد كل البعد من العملية الرياضية التي تحمل نفس التسمية ، اذ ليست محاكمة منطقية بحتة ، بل عملا منطقيا رياضيا ولا تلتفت الى الجزئيات أبدا بل الى الاشياء غير المعينة المشار اليها بالحروف (أي الى الكليات بمعناها الرياضي لا الفلسفي) . وغايتها الكشف عن بنية الشيء بالحاق نسبة بنسبة أخرى لتساويهما في وضع آخر .

اذا لم يرتبط به ارتباطا وثيقا والا كان هذا الالحاق من محض التحكم ، اذ أن الكليات لا وجود لها في الواقع المحسوس . وان كان هناك بعض المشابهة وبعض التناسب بين هذه العناصر فليس يقع ذلك الا بكيفية سطحية وغير مستمرة ولا يمكن للـ analogia أن تدرك نظام اللغة العميق (43) لانه فوق طاقتها . واكبر حجة يوردونها على القائلين بالتناسب الوضعي (أصحاب الحمل) هو عجز هؤلاء على تعليل المهمل من الكلام الذي يجيز العقل استعماله بل يوجبه أحيانا ولم يستعمله الناس (44) . فهذه دعوة دعا اليها أصحاب الرواق ، وكذلك من اتبعهم من نحاة مدرسة برجامة . هذا ولا ننس أن اغلب من كان يستعمل الحمل في اللغة انما كانوا من النحاة وكان لا يهمهم الا تفسير معاني الشعر اليوناني القديم (45) واستخراج المعايير اللغوية الاساسية من أجل تلقينها لمن ذهبت عنه السليقة اليونانية . فبذلك ابتعدوا عن التأملات الفلسفية بل حرروا النحو (شيئا ما) من الفلسفة التأملية .

واشتهر من هؤلاء النحاة الاسكندرانيين ارسطارقوس السموتراقي (المتوفي 115 أو 145 ق. م) وديونسيوس التراقي (المتوفي في 90 ق. م) كما اشتهرت المناظرات التي دارت بين ارسطارقوس هذا وزعيم مدرسة برجامة التي تأثرت بآراء الرواقيين (ومن هؤلاء نذكر خاصة ديوجينوس البابلي ، أستاذ قراطيس ، وقبله اخروسيبس (39)(Chrysiphus) المتوفي في 205ق. م تقريبا) وهو أحد زعماء الرواقية . أما ديونسيوس التراقي (من أتباع أرسطارقوس المشهورين) فهو الذي

---

(43) انظر الهامش الثاني التالي . وانظر أيضا جواب ابن جني عن هذا في **الخصائص** ، 1 ، 54 وما بعدها .

(44) لا ننس أن الرواقيين أصحاب هذا القول عارضوا فلسفة أرسطو معارضة شديدة وكانوا قد أنشأوا منطقا خاصا بهم بعيدا عن منطقه وقد صوبه وامتثله المنطق الحديث فأصبح فرعا من فروعه . ومما نقدوه في مذهب أرسطو وسابقيه مبالغته في تفضيل الكلي على الجزئي ونفييه هذا الأخير من العلم (الصور الذهنية الكلية هي عنده الجوهر الوحيد الذي تتكون منه المعرفة العلمية) . وليس كل ما قالوه في العناصر اللغوية خطأ وتوهما فانهم نبهوا أولا على أن أحداث الكلام ليست على هذا القدر من الانسجام (السطحي) الذي تصوره الفلاسفة أحيانا بكل بساطة ثم أن التعسفات الفلسفية والأقوال الباطلة التي لم تستند الى الواقع المحسوس وكل التخيلات والخزعبلات الاشتقاقية التي بدأت تنتشر قبيل عصر أفلاطون كل هذا أحدث عند الرواقيين رد فعل عنيف أداهم الى بعض المبالغة ولكن يجب أن ننصفهم وذلك بأن لا نكتفي بالمظهر السلبي من فلسفتهم ومهما كان الأمر فهم الذين دعوا الباحثين الى تصحيح أقوالهم بالرجوع الى الظواهر وعيانها قبل الحكم عليها . وحذروهم من كل قول جازم نهائي ولفتوا انظارهم الى وجود نظام لغوي خفي لا يمكن الاهتداء اليه بتلك الوسائل الساذجة التي ابتدعها الفلاسفة وغيرهم آنذاك . هذا وقد يتبادر الى ذهن بعض الناس أن هذا يشبه آراء أهل الكوفة من النحاة ويكون البصريون منهم أكثر شبها بأصحاب أرسطو . ان هذا لمن أبسط التشبيهات لأن الكوفيين لا يختلفون أبدا عن البصريين في استعمال المفاهيم المنطقية (الرياضية) (انظر كتاب معاني القرآن مثلا) بل يفارق أهل الكوفة أهل البصرة في عدم تشددهم في مشاهدتهم وجمعهم للغة والأشعار (وبما لا يرفضون كلام العربي المشكوك في فصاحته كما يزعم البصريون) وتساهلهم أيضا في استعمال القياس فقد يرون النادر الذي سمع من شخص واحد ويعتبرونه قياسا أي قانونا عاما فهم بذلك أكثر استعمالا للقياس على حين أن البصريين لايقيسون الا على الكثير المشهور ولا يقيسون أبدا ان جاء السماع الصحيح بما يمنع ذلك (راجع كتابنا في علم العربية) .

(45) هكذا نسخ الفارابي اسمه (**شرح كتاب العبارة** ، نفس الطبعة ، ص 53) !

الف أول كتاب على طريقة الاسكندريين فى الغراماطيقي باليونانية Tekhné grammatika صناعة النحو و grammata ، معناه الهجاء ، فيكون المعنى الاول هو الفن الذي يعلم القراءة والـكتابة ، ومن ثم اللغة) وقد وصل الينا هذا الـكتاب (46) وتعرض فيه الى عدة مسائل وحدد هكذا الغراماطيقي : « هو المعرفة المتعمقة لكل ما هو راجع الى اللغة بحسب الاستعمالات الشائعة عند المؤلفين نظما ونثرا » . وقال انه ينقسم الى ستة أقسام :

1 ــ قراءة صحيحة تتفق مع قواعد النبر ،
2 ــ تفسير يتفق مع ما يجري استعماله من صور البيان ،
3 ــ تحديد للألفاظ الغامضة والمعاني القديمة ،
4 ــ بحث عن أصول الـكلمات (étymologia) ،
5 ــ بحث عن التناسب اللغوي ،
6 ــ نقد للشعر حتى يعرف أيه أحسن (47) .

بهذا البيان لأجزاء الغراماطيقي تظهر خصائص المدرسة الاسكندرية بوضوح : هي قبل كل شيء مدرسة فيلولوجية ، بل هي التي اسست الفيلولوجية التي عرفت في أوربا فيما بعد وذلك لاقتصارها على النصوص القديمة (48) وتتبع معانيها من خلال مبانيها اللغوية وبعثها للنطق القديم الذي تناساه الناس منذ زمان بعيد واهتمامها بالنقد البلاغي (49) بالاعتماد على مقاييس جمالية خاصة ثم ما ورثتها عن الفلاسفة والمفكرين اليونانيين الاولين من الاعتناء بتأصيل الـكلمات والتعويل فى تقعيد القواعد على التناسب اللغوي . فهذه صفات الفيلولوجية التي ما تزال آثارها ظاهرة الملامح فى جل البحوث الاوربية (من أقدم العصور الى يومنا هذا) .

هذا وقد حاول أولئك النحاة تحليل مستويات لغتهم ، فبالنسبة الى مرتبة الاصوات والحروف (الاسطقسات) فقد اعتمدوا على من سبقهم الى ذلك من الفلاسفة فقد كان أرسطو قد نوع تقسيم الحروف الجوامد (تبعا لمن كان يتعاطى تحليل أوزان الشعر فى زمانه وقبله) (50) الى شبه مصوت (أو نصف مصوت : hémiphôna وغير مصوت : àphôna ، وبين النحاة أن الاول يطلق على حروفهم المزدوجة dipla مثل : ψ (psi) ξ (ksi) ζ (dzéta) والبسيطة وهي السين (sigma) والحروف « المائعة » (liquidos = hùgra) : ل ، ر ، ن ، م ، ولم يكن لهم واو ، ولا ياء ، ولا صوتهما المزوج (w) وهي التي يقال لها الان أشباه المصوتة

---

(46) نشر I. Bekker فى مجموعة من النصوص اليونانية بعنوان : Anecdota graeca (برلين 1919) .

(47) المصدر السابق ، ص 629 .

(48) ولهذا لا يمكن أن ينطبق مفهوم الفيلولوجية على علوم العربية لأنها لم تكتف فى بناء أصولها على استقراء النصوص المكتوبة مثل القرآن الكريم بل تعدت ذلك الى ما كان حاصلا مشافهة فى زمانها وبالتالي ما كان يمكن مشاهدته مباشرة مثل قراءات القرآن وانشاد الشعر الجاهلي والشعر الاموي وبالخصوص كلام فصحاء العرب فليس هذا من الفيلولوجية فى شيء بل هو دراسة للأحداث على ما هي عليه فى زمان ظهورها ولم يسبق العرب الى ذلك أبدا وبنفس الاسلوب يدرس علماء اللسانيات اليوم أسرار اللغات .

(49) انظر كتابه : **فى الشعر** ترجمة ابي بشر متى (تحقيق ع. بدوي ، القاهرة 1953) **وتلخيص كتاب الشعر** لابن رشد (نفس المصدر) **وتلخيص الخطابة لابن رشد أيضا** (نفس المحقق ، القاهرة 1960)

(50) انظر كتابه **فى الشعر** (نفس المصدر ، ص 11) .

semi-voyelles كما قسموا غير المصوت على أساس خروج النفس والنفخ (aspiration) مع الحرف أو عدم خروجه ، فالذي معه نفس كثير سموه « كثيفا » (aspira = daséa.) باللاتينيـة) مثل φ والـذى معه شيء سموه « متوسطا » (media = mesa) مثل β والذي ليس معه نفس أبدا سموه « دقيقا » (tenuis = psila) مثل π وبذلك عرفنا أنهم لم يتنبهوا الى الفرق الاساسي الذي يوجد بين المجهور والمهموس ولا بين الرخو والشديد . وقسموا أيضا المصوت الى مقصور وممدود وما بينهما . ولاحظوا في كلامهم أن المصوتين قد ينطق بهما دفعة واحدة مثل au ai oi وغيرها (وهي في الحقيقة مصوت متبوع بحرف شبيه بالواو والياء في حالة السكون) وسموا مصوتا مزدوجا : الـ (diph-tongos) ثم تعرضوا لمستوى الكلم فأخذوا من الفلاسفة تقسيمهم لانواع الكلم (51) واعادوا النظر فيه فأفضوا الى هذه الاقسام الثمانية :

— الفاصلة articulus = arthron
— الاسم nomen = onoma
— الخالف pronomen = ant-ônomya
— الكلمة verbum = rhêma
— المشبه بالاسم والكلمة participium = met-ochikon
— تابع الكلمة adverbium = épirrhêma
— أداة الاضافة praepositio = pro-thesis
— الرباط conjunctio = syndesmos (52) .

ويجب أن نشير أيضا الى نحوي يوناني آخر ، وهو : أبولونيوس ديسكولي ، المتوفى في 150 بعد الميلاد ، امتاز هذا الرجل عن غيره بتعمقه في دراسة اللغة واستقصائه البحث عن قوانينها ولا سيما علل هذه القوانين وعلل العناصر التي تشذ عنها . ويظهر تفوقه على من سبقه في كتابه « في التراكيب » الذي لا يقل حجمه عن أربعة مجلدات .

يؤاخذ أبولونيوس سابقيه فيما يعتبره تقصيرا وهو اكتفاؤهم بذكر الامثلة وعدم التفاتهم الى علة الشواذ ويفضل دائما الشواهد النثرية على الشعرية لان في الشعر — حسب أقواله — أشياء غير عادية كالتقديم والتأخير غير المألوفين والحذف وغير ذلك . ويعني أيضا بالمعنى وبدور الكلمة في الجملة زاعما أن هذين الشيئين أهم من اللفظ ويحذر من اللجوء الى المعنى المجازي في تحديد مدلولات الالفاظ لان المعنى المجازي ليس الا معنى عارضا ، ثم قال عن التناسب الوضعي انه لا يستمر دائما فقد يتخلف وكل ذلك راجع الى الصدفة وعوارض الامور ، الا أن اللغة بنيت على حكمة وكثيرا ما يبتعد أبولونيوس في تحديداته لاقسام الكلم عما استنه ارسطو والرواقيون كتحديده الجديد لما كان يسميه أرسطو بالكلمة فانه لا يلتفت الى المفهوم المنطقي بل الى اللغوي فقط . يقول الـ rhêma هي لفظة ذات صيغ خاصة تدل على الزمان

---

(51) نفس المصدر .

(52) كل ما هو بالعربية فهو مما ترجمه العرب قديما الا الخامس والسادس والسابع لانه مما وضعه النحاة اليونانيون ولا يوجد ، على ما نظن ، مقابل له عند الفلاسفة العرب . ويقابل هذه العناصر في العربية ، بالتقريب (لاختلاف مبنى اللغتين) على التوالي : أداة التعريف والاسم والضمير والفعل وأسماء الفاعل والمفعول والمنصوبات غير المفعول به وحرف الجر (وبعض الاسماء الملازمة للاضافة) وعطف النسق .

وعلى الفعل والانفعال وعلى الفاعلين وعددهم ..(53) . فهذا أقرب الى تحديدات النحاة الاوربيين المحدثين (قارن بما قاله أرسطو : « الـكلمة هي ما يدل ــ مع ما تدل عليه ــ على زمان .. وهي دائما دليل ما يقال على غيره .. ما يقال على الموضوع .. أما قولنا « لا صح » (مع النفي) ..فلست أسميه كلمة .. وعلى هذا المثال قولنا « صح » الـذي يدل على زمان المـاضي أو « يصح » الذي يدل الزمان المستأنف ، ليس بكلمة (54) » . فبين أن ارسطو لا يعني بالـكلمة المفهوم اللغوي المسمى عند العرب فعلا وعند النحاة المحدثين verbe بل مـدلولا منطقيـا وهو اللفـظ الذي يحمـل على المـوضوع في الحكم . ورغم كل هذه الافكار التي أصاب أبولونيوس في أكثرها فانه لم يهتد الى مفاهيم نحوية ولغوية كثيرة ، كما لم يهتد اليها النحاة الغربيون الا بعد القرن السـادس عشر . وكان لابولونيوس ابن يسمى هيروديان تتلمذ عليه واشتهر هو أيضا ببحوث قيمة . وكل من جاء بعدهما صار يرجع الى تآليف هذين الرجلين وخصوصا النحوي اللاتيني برسيانو ، وقبل أن نختم مقالنا عن أعمال اليونانيين في هذا الميدان يجدر بنا أن نشير أيضا الى النشـاط اللغوي الذي أثاره اليونانيون في الاوسـاط اللاتينية المثقفة ، فقد كان قراطيس المالي السـابق الذكر قد أقام مدة في روما وأفاد الرومانيين بمعلوماته النحوية فنشأت مدرسة نحوية لاتينية بعد ذلك ، ومن أشهر علمائها نذكر : فـارو (Varro) المتوفي في القـرن الاول ق . م ، صـاحب كتاب : **في اللغة اللاتينية** (*De Lingua latina*) ، وكواتيليانو (Quintilianus) معاصر للسـابق ، صاحب كتاب : **مناهج صناعة الـكلام** (*Institutio Oratoria*) . ثم دوناتو (Donatus) المتوفي في 350 بعد م . صاحب كتاب : **الفن الاصغـر في الاقسـام الثمانيـة من صنـاعة الـكلام** (*De octo partibus orationis Ars minor*) وأخيرا بريسيانو (Priscianus) المتوفي في 500 بعد م . وله كتاب اشتهر شهرة واسعة في القرون الوسطى ويحمل عنـوان : **اصول الغراماطيقي** (*Institutiones grammaticae*) وقد اعتمد جميع المؤلفين في أوربا بعد الرومان على ما تركوه من هـذه المؤلفات . كما أن النحاة الرومان أخضعوا جميـع الظواهر اللغوية اللاتينية لقوانين اللغة اليونانية كذلك أخضع نحاة أوربا من بعدهم كل ما لاحظوه في لغاتهم الخاصة للمفاهيم التي اطلعوا عليها في كتب الرومان . والى يومنا هذا ما انفكت كتب النحو المدرسية تستعمل نفس المفاهيم ونفس المصطلحات التي تداولها قوم بعد قوم وتناقـلوها عبر الزمان ، منذ عهد أرسطو الى العصر الحاضر ولا تزال رائجة لم تكسـد سوقها رغم رثتها وقـلة موافقتها لمقتضيات هذا العصر (55) .

---

(53) انظر **Anecdota graeca** لـ I. Bekker السابق الذكر ، ص 882 .

(54) **منطق ارسطو** ، تحقيق ع. بدوي ، ص 61 و 62 .

(55) نخص بالذكر كتاب كواتيليانو الذي صار عماد كل نحوي وأول كتاب طبع في الدنيا ! وبدأ المثقفون منذ سنوات يتركون شيئا فشيئا هذه المفاهيم العتيقة ويستبدلونها بمفاهيم علم اللسان الحديث وقد تم ذلك على مستوى الجامعات ومعظم التعليم الثانوي والابتدائي . وهذا لا يعني أنهم تركوا كل شيء فيها بل حافظوا على ما لا يزال صحيحا منها حتى يأتي يوم يحتم عليها الزوال أو التكييف والتطور . هذه سنة الله في أرضه .

العلوم اللسانية عند العرب :

لا يمكن أن نكتفي بفقرة قصيرة فى عرض النظريات والمناهج اللغوية التي كانت قديما عند علماء العرب خصوصا وان هذه المقالة موجهة الى القارىء العربي الذي لم يطلع بعد على مضمون اللسانيات الحديثة . فان هذا يحتاج الى أن يفرد له كتاب مطول وقد قمنا فى كتابنا المشار اليه بما يشبه ان يكون خطوة تمهيدية فى تحليل المفاهيم العربية وقد تعمدنا فى مقالتنا هذه — كما لا حظه بلا شك القارىء الكريم — ربط جميع المفاهيم المعروضة فيها بما يقابلها فى التراث اللساني العربي ، وكثيرا ما أشرنا الى اللغويين العرب وغيرهم ممن ساهم فى احداث هذه الاشياء وصياغتها . هذا ولا بأس أن نشير أيضا ههنا الى الالفاظ التي كانوا يستعملونها للدلالة على المفهوم العام الذي تصوروه لعلم اللسان والمفاهيم الخاصة المفرعة عليه . لقد سبق لنا القول بان لفظة « اللغة » كانت تطلق عند النحاة واللغويين على عدة معان زيادة على ما يفهم من تحديد ابن جني لها وهو اللسان بوجه عام . وبينا بذلك سبب تفضيلنا للفظ اللسان عليها في ترجمة كلمة الـ Linguistics الاوربية . والذي يبرر اختيارنا — بصرف النظر عن الالتباس الذي اشرنا اليه — هو أولا أن المفهوم العام الذي عرف للفظ اللغة ما عرف في الحقيقة الا بعد نهاية القرن الثاني الهجري ، وأن الاصل في الدلالة عليه هو ما استعمله القرآن الكريم (لا توجد فيه كلمة أخرى لهذا المدلول غير « اللسان » والشعر الجاهلي والاسلامي وما نقل من كلام النحويين قبل وفاة سيبويه وكل ما ألف في العربية والفقه والحديث ، وغير ذلك من العلوم الاسلامية) فلا يوجد فيها الا لفظ «اللسان» وكلما استعملت كلمة « لغة » فيها فهو للدلالة على الكيفية الخاصة التي يمتاز بها قوم عن قوم — عربا كانوا أم عجما — في تأدية لفظ معين اما في النطق به أو صياغته أو تركيبه (وهذا نراه واضحا في كتاب العين وكتاب سيباويه ودفاتر العلماء المستقرين « للغات » العرب (56) . وكذلك كتب الامام الشافعي (ولا ننس أنه كان حجة عند النحاة وهؤلاء المتحرين) . ثم لا حظنا استعمال هذا اللفظ للدلالة على المادة المستقراة التي تلقاها الناس من أفواه « اللغويين » أعني : الأصمعي وابا زيد الأنصاري وابا عبيدة وابا عمرو الشيباني وغيرهم ممن كان يعتني بجمع « اللغة » أي موضوعات اللسان فنسبوا الى « اللغة » كما نسب عبد الله بن أبى أسحق وغيره الى « النحو » (أي **الوجه** أو الكيفية التي كان يجب أن «ينحوها» غير الفصيح ليلتحق بالفصيح) . فبعد أن كانت « اللغة » تدل على التنوعات الاقليمية في تأدية الكلام صارت تدل أيضا — زيادة على ذلك — على مجموعة الموضوعات التي تتكون منها حصيلة ما تحراه « اللغويون » وقابلوا بها « النحو » لمقابلتهم معنى « اللغويين » لمعنى « النحويين » . الا أن عبارتهم « اللغة العربية » التي كانوا يقابلون بها « اللغة الاعجمية » (ومقصودهم منها : **هذان الاستعمالان الاقليميان المختلفان** : العربي والاعجمي) أدتهم حتما الى هذا الاشتراك الدلالي بين اللغة واللسان الذى رأيناه كما عند ابن جنى لانه أصبحت المسافة قريبة بين هذه العبارة وعبارة « اللسان العربى » فعبروا هذه المسافة بأن أشربوا لفظ «اللغة» مدلول اللسان وحصل بذلك ترادف تام بهذا الاعتبار وحافظوا مع

---

(56) جاء فى **لسان العرب** لابن منظور فى مادة « لغو » ما يلي : « ... قال أبو سعيد : اذا أردت أن تنتفع بالاعراب فاستلغهم أي اسمع من لغاتهم من غير مسألة ... لغا فلان عن الصواب وعن الطريق اذا مال عنه . قاله **ابن الأعرابي** . » قال : « واللغة أخذت من هذا (أي فى اصطلاح « اللغويين ») لان هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين » .

ذلك على المدلول الاول للفظ اللغة لاحتياجهم اليه (وكل النصوص القديمة شــاهدة على ذلك حتى نصوص المتأخرين) فحصل الاشتراك الملبس الذي اشرنا اليه . أما المبرر الثاني لاختيارنا فهو أن النحاة وغيرهم من العلمـاء العرب يطلقون غالبا على مفهوم الدراسة العلمية لظاهرة اللسان بصفة عـامة لفظ « عـلم اللسـان » . وهاهي ذي نبذ استخرجناها من كتاب **« احصاء العـلوم »** لأبي نصر الفارابي ، وهي من أهم النصوص التي بلغتنا عن مفهوم هذا العلم عند العرب . يقول الفارابي :

« **علم اللسان** في الجملة ضربان : احدهما ، **حفظ الالفاظ** الدالة عند أمة ما ، وعلم ما يدل عليه شيء شيء منها . والثاني ،**علم قوانين تلك الالفاظ** .

« والقوانين في كل صناعة : اقاويل كلية ، أي جامعة ، ينحصر في كل واحد منها اشياء كثيرة مما تشتمل عليه تلك الصناعة ، حتى يأتي على جميع الاشياء التي هي موضوعة للصناعة أو على أكثرها . وتكون معدة اما ليحاط بها ما هو من تلك الصناعة ، لئلا يدخل فيها ما ليس منها ، أو يشذ عنها ما هو منها . واما ليمتحن بها ما لا يؤمن أن يكون قد غلط فيها غالط . واما ليسهل بها تعلم ما تحتوي عليه الصناعة وحفظها . والاشياء المفردة الكثيرة انما تصير صنائع بأن تحصر فى قوانين تحصل فى نفس الانسان على ترتيب معـلوم . وذلك مثل الـكتابة والطب والفلاحة والنجارة وغيرها من الصنائع كانت عملية أو نظرية . وكل قول كان قانونا في صناعة ما ، فانه معد بما هو قـانون لاحد ما ذكرناه أو لجميعه . ان الالفاظ الدالة فى **لسان كل أمــة** ضربان : مفردة ، ومركبة . فأما المفردة : كالبياض ، والسواد ، والانسان ، والحيوان . والمركبة : كقولنا الانسان حيوان ، وعمر ابيض . فالمفردة : منها ما هي القاب أعيان ، زيد وعمرو . ومنها ما يدل على أجناس الاشياء وأنواعها ، مثل الانسان ، والفرس، والحيوان ، والبياض ، والسواد . والمفردة الدالة على الاجناس والانواع : منها أسماء : ومنها كلم ، ومنها أدوات .

« ويلحق الاسماء والـكلم والتأنيث ، والتوحيد والتثنية والجمع ، ويلحق الـكلم خاصة الازمان ، وهي المـاضي والحاضر والمستقبل . **وعلم اللسان عند كل أمة** ينقسم سبعة أجزاء عظمى :

« علم الالفاظ المفردة ، وعلم الالفاظ المركبة ، وعلم قوانين الالفاظ عندما تكون مفردة ، وقوانين الالفاظ عندما تركب ، وقوانين تصحيح الـكتابة ، وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين تصحيح الاشعار .

« فعلم **الالفاظ المفردة** : يحتوي على علم ما يدل عليه لفظه لفظة من الالفاظ المفردة الدالة على أجناس الاشياء ، وأنواعها ، وحفظها وروايتها كلها : الخاص بذلك اللسان، والدخيل فيه ، والغريب منه ، والمشهور عند جميعهم .

« **وعلم المركبة** : هو علم الاقاويل التي تصادف مركبة عند تلك الامة وهي التي صنفها خطباؤهم وشعراؤهم ، ونطق بها بلغاؤهم وفصحاؤهم المشهورون عندهم ، وروايتها ، وحفظها ، طوالا كانت أو قصارا ، موزونة كانت أو غير موزونة (57) .

---

(57) هذه الفقرة وما قبلها بسط معانيها الفارابي فى **كتاب الحروف** (حققه ونشره محسن مهدي ، بيروت 1970 ، ص 145 — 148) بسطا رائعا . ومن البين أن كل هذه الأفكار أخذها الفارابي من النحاة العرب فرتبها هذا الترتيب المنطقي العجيب .

« **وعلم قوانين الالفاظ المفردة :** يفحص اولا في الحروف المعجمة عن عددها ، ومن اين يخرج كل واحد في آلات التصويت . وعن المصوت منها وغير المصوت ، وعما يتركب منها في ذلك اللسان ، وعما لا يتركب ، وعن أقل ما يتركب منها حتى حدث عنهـا لفظة دالة ، وكم أكثر ما يتركب ، وعن الحروف الذاتية التي لا تتبدل في بنية اللفظ عند لواحق الالفاظ من تثنية وجمع ، وتذكير وتأنيث ، واشتقاق ، وغير ذلك . وعن الحروف التي تندغم عندما تتلاقى .

« ثم من بعد هذا يعطي **قوانين أمثلة الالفاظ المفردة** ، ويميز بين الحالات الاولى التي ليست هي مشتقة عن شيء ، وبين ما هي مشتقة ، ويعطي أمثـلة أصناف الالفاظ المشتقة ، ويميز بين الحالات الاولى وبين ما هي منها مصادر ، وهي التي منها يعلم الـكلم عما ليس بمصدر ، وكيف تغير المصادر حتى تصير كلما ، ويعطي أصناف أمثلة الـكلم . وكيف يعدل بالـكلم حتى تصير أمرا ونهيا ، وما جانس ذلك فى أصناف كميتها وهي الثلاثية والرباعية ، وما هو اكثر منها . والمضاعف منها وغير المضاعف وفى كيفيتها وهي الصحيح منها والمعتل ،ويعرف كيف يكون ذلك عند التذكير والتأنيث ، والتثنية والجمع ، وفى وجوه الكلم ، وفى أزمانهـا جميعا . والوجـوه هي : أنـا ، وانت ، وذاك ، وهو ، ثم **يفحص عن الالفاظ التي عبر النطق بها أول ما وضعت ، ففـيرت حتى سهل النطق بها** (58) .

« وعلم **قوانين الالفاظ عندما تتركب** ضربان :

« احدهما : يعطي قوانين أطراف الاسماء والكلم عندما تركب أو ترتب ، والثاني : يعطي قوانين في أحوال التركيب والترتيب نفسه ، كيف هي في ذلك اللسان ، وعلم قوانين الاطراف المخصوص بعلم النحو فهو يعرف أن الاطراف انما تكـون أولا للاسماء ثم الـكلم ، وأن أطراف الاسماء منها ما يكون في أوائلها ، مثل ألف لام التعريف في العربية ، أو ما قام مقامها في سائر الالسنة ، ومنها ما يكون في نهايتها وهي الاطراف الاخيرة ، وتلك هي التي تسمى حروف الاعراب . وان الـكلم ليس لها اطراف أول ، وانما أطراف أخيرة . والاطراف الاخيرة للاسماء والكلم هي في العربية : مثل التنوينات الثلاث ، والحركات الثلاث ، والجزم ، وشيء آخر ان كان يستعمل في اللسان العربي طرفا ، ويعرف أن من الالفاظ ما لا ينصرف من الأطراف كلها ، بل انما هو مبني على طرف واحد فقط في جميع الاحوال التي ينصرف فيها غيره من الالفاظ ، ومنها مالا ينصرف فى بعضها دون بعض ، ومنها ما ينصرف في جميعها ، ويحصي الاطراف كلها ويميز أطراف الاسماء من أطراف الـكلم ، **ويحصي جميع الاحوال** التي ينصرف فيها الـكلم . ثم يعرف في أي حال تلحق كل واحد أي طرف ، فيأتي أولا على أخصها حال حال من أحوال الاسماء الموجودة المنصرفة التي يلحقها فى كل حال طرف ما من أطراف الاسماء ، ثم يعطي مثل ذلك في الاسماء المثناة والمجموعة ثم يعطي مثل ذلك في الـكلم الموجودة فى المثناة والمجموعة الى أن يستوعب الاحوال في التي يتبدل فيها على الكلم أطرافها التي حصلت لها ، ثم يعرف الاسماء التي تنصرف فى بعض الاطراف ، وفى أنها تنصرف ، وفى أنها لا تنصرف ، ثم يعرف الاسماء التي كل واحد منها مبني على طرف واحد ، وأنه مبنى علىاي طرف .

---

(58) هذا أساس الصوتيات التطورية فى علم اللسان الحديث .

« وأما الادوات : فان كانت عادتهم أن تكون كل واحدة منها مبنية على طرف واحد، أو كان بعضها على واحد فقط ، وبعضها ينصرف في شيء من الاطراف ، عرف كذلك . فان كانت قد توجد لهم الفاظ شك في أمرها هل هي أدوات أو أسماء أو كلم ، أو كان قيل فيها ان بعضها يشاكل الاسماء ، وبعضها يشاكل الكلم ، احتاج أن يعرف ما من هذه يجرى مجرى الكلم ، وفي ماذا ينصرف من اطرافها .

« وأما الضرب الذي يعطي قوانين التركيب نفسه فانه يبين أولا كيف تتركب الالفاظ وتترتب في ذلك اللسان ، وعلى كم ضرب حتى تصير اقاويل . ثم يبين أيها هو التركيب والترتيب الافصح فى **ذلك اللسان** .. » (59) . وقال فى موضع آخر :

« وههنا أحوال تخص لسان دون لسان مثل : أن الفاعل مرفوع ، والمفعول به منصوب ، والمضاف لا يدخل فيه الف ولام التعريف . فان هذه وكثيرا غيرها يخص لسان العرب . وكذلك في لسان كل أمة أحوال تخصه . وما وقع في علم النحو من اشياء مشتركة لالفاظ الامم كلهم ، فانما اخذه أهل النحو من حيث هو موجود في ذلك اللسان الذي عمل النحو له : كقول النحويين من العرب ان الكلم العربية اسم وفعل ، وحرف . وكقول نحوى اليونانيين : أجزاء القول في اليونانية اسم ، وكلمة ، واداة (60) ، وهذه ليست انما توجد فى العربية فقط ، أو في اليونانية فقط ، **بل في جميع الالسنة** ، وقد أخذها نحويو العرب على انها في العربية ، ونحويو اليونانية على أنها في اليونانية . فعلم النحو في كل لسان انما ينظر فيما يخص تلك الامة ، وفيما هو مشترك له ولغيره ، لا من حيث هو مشترك ، لكن من حيث هو موجود فى لسانهم خاصة » (61) .

بهذا الكلام القيم يتضح لنا مفهوم علم اللسان الذي تصوره العرب فلاحظ بالخصوص العبارات : « في لسان كل أمة » و « فيما هو مشترك له ولغيره » فانها تدل بوضوح على عدم اقتصار الفارابي في تقسيماته لموضوعات علم اللسان على لسان معين ، وهذه نظرة لم يسبق لنا أن رأيناها عند النحاة المتقدمين من غير العرب ولا من جاء بعدهم من النحاة الاوربيين فى القرون الوسطى حتى القرن الثالث عشر حيث تمكنوا من الاطلاع على تآليف العرب وخصوصا هذا الكتاب (كما سنراه فيما يلي) . ويجب أن نذكر أن الفارابي عاشر مدة طويلة النحوي الممتاز أبا بكر بن السراج وأفاد منه كل هذه المعلومات التي يذكرها هنا ، وهي راجعة في الاصل الى ما استخرجه النحاة من العربية (62) . ويوافقهم في بعض هذه الاشياء خاصة باللسان العربي والبعض الآخر — كانقسام الكلم الى اسم وفعل وحرف — عام الوجود (وهو قول النحاة) واقدم كتاب راينا فيه هذا **المقتضب** للمبرد شيخ ابن السراج (63) .

---

(59) طبعة القاهرة 1931 ، ص 3 — 8 .

(60) هذا عزاه غلطا الى أرسطو نحويان اثنان : يوناني وروماني (انظر مقالتنا : النحو العربي ومنطق أرسطو ، ص 78) .

(61) نفس المصدر ، ص 18 — 19 .

(62) انظر ابن أبي أصيبعة ، **عيون الأنباء** بتحقيق مولر ، 2 ، 136 وكذا المقدمة القيمة التي كتبها الأستاذ محسن مهدي **لكتاب الحروف** لابي نصر الفارابي .

(63) سنشير الى هذا أيضا عند تعرضنا لنظريات الـ Scolastiques .

وهو ينطلق دائما من هذه التسمية « علم اللسان » للدلالة فى نفس الوقت ، على الموضوعات العامة والموضوعات الخاصة ، وكذلك العلماء الذين سبقوه ، واذا أرادوا التخصيص وصفوا هذا اللفظ أو أضافوه الى اسم الامة المعينة كقول الفارابي « وأهل العلم بذلك اللسان » (ص 19) ، وقول الشافعي : « عند أهل العلم بلسان العرب » (64) .

وهناك شيء آخر أيضا يثبت اعتقادنا بصلاحية هذا اللفظ للدلالة على علم اللسان الحديث ، وذلك هو الترجمة اللاتينية لكتاب **احصاء العلوم** التى قام بها Girardo Cremonensi في القرن الثاني عشر الميلادي (65) فقد جاءت فيها هذه العبارة Scientia Lingue مقابلة للفظ علم اللسان ، وقد عرفنا أن **هذه العبارة** هي التي يحدد بها الان مضمون الـ Linguistics فى جميع الكتب التي تعالج هذه المادة) وهيThe science of languageوما يماثلها فى اللغات الاوربية الاخرى . ثم ان هذه التسمية بهذا المفهوم الذي وجده الاوربيون في كتاب الفارابي لم يسبق مجيئها فيما قبل ذلك التاريخ في نص يوناني أو لاتيني أو أي نص آخر ، وبما أن هذه الموضوعات العامة التي ذكرها الفارابي كأقسام هامة لعلم اللسان هي التي سيعالجها الـ Linguistics في عصرنا الحاضر فلا نظن انه يوجد لفظ أصلح لتأدية المفهوم الحديث من هذا الذي انطلق منه أصحاب الـ Linguistics أنفسهم (66) .

أما لفظ « فقه اللغة » الذي بدأ يستعمله العلماء في القرن الخامس الهجري فهو لا يدل أبدا عندهم على ما يدل عليه علم اللسان الحديث (وان كان آثره بعض اخواننا فأطلقه عليه ، وذلك لما تبادر الى ذهنه من المناسبة بين المدلول لكلمة « فقه» (العلم بالشيء والتعمق فى فهمه) وبين ما هو مطلوب في الـ Linguistics اذ هو بحث عن أسرار اللسان) . فان العلماء العرب في القديم ما أرادوا بهذا الا ما هو متعلق بالدراسة المتعمقة « للغة » فقط لا للسان كله . وموضوعه هو البحث عن الفوارق اللغوية الناتجة عن التعارض بين **الوضع والاستعمال** وما يترتب على ذلك من التفريع الدلالي وتشعبات المعاني ، فهي دراسة تتعرض للمفردات بصفة خاصة من حيث تنوع معانيها اما بتنوع تصورات الاشخاص بصفة عامةواما بتنوع استعمالها اللهجي أو الاصطلاحي وحتى البلاغي أحيانا . وقال في هذا الصدد أحد من فهم روح العلوم الاسلامية حق الفهم وهو ابن خلدون : « لما كانت العرب **تضع** الشيء لمعنى على العموم ثم **تستعمل** في الامور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها ، فرق ذلك عندنا بين **الوضع والاستعمال** واحتاج الناس الى**فقه في اللغة** عزيز المأخذ . كما وضع الابيض

---

(64) **الرسالة** ، بتحقيق أحمد محمد شاكر (رائع !) ، القاهرة ، 1940 ، ص 60 ، فـ 203 . واستعمل الكثير من العلماء لفظ « علم اللسان » لنفس المدلول : ابن سيده فى **المخصص** . (ط. القاهرة 1316 — 1321 ، 1 ، 14) والبطليوسي فى **الاقتضاب** (بيروت 1901 ، ص 68) وابن خلدون فى مقدمته فى مواضع كثيرة وغيرها .

(65) توجد مخطوطة منه فى المكتبة القومية بباريس تحت رقم 9335 (من الورقة 143 ظهر الى 151) ونشرها مع النص العربي وترجمته الى الاسبانية (ونص لاتيني آخر مختصر) A. Gonzalez Palencia فى مدريد عام 1932 .

(66) لا نعني بذلك طبعا أن ما قاله الفارابي في هذا الكتاب — وفي غيره مما ترجم أيضا الى اللاتينية — هو مصدر كل ما يوجد الان في علم اللسان الحديث . فان في هذا العلم أمورا كثيرة ابتدعت فى زماننا ، بل مقصردنا هو أن المفهوم الذي تصوره العرب لعلم اللسان (علم يتناول العام والخاص من الأحداث اللغوية أي ما تشترك فيه جميع اللغات وما تختص به وما ينقسم اليه من أقسام غير معروفة قبل بهذه الدقة) هو أول مفهوم كان يمكن أن تنطلق منه الـ Linguistics فيما بعد .

بالوضع العام لـكل ما فيه بياض ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالاشهب ومن الانسـان بالأزهر . . » (67) . وعلى هذا فان فقة اللغة عند العرب هو امتداد وفرع لعلم اللغة أو **علم متن اللغة** الذي يدرس « الموضوعات اللغوية » أي ما وضع من الالفاظ **المعينة السماعيه** (شرح الـكافية ، ص 5) وقصره المتاخرون على أوضاع المفردات فقط (انظر تحديدات ابن يعقوب المغربي والتهانوي وغيرهما) وعلى هذا يقابل عـلم اللغة علم النحو بمعناه العام (أي بما فيه الصرف) من جهة علاجه لمادة اللسـان **كمـادة** وهي مجموع الفاظها الموضوعة في **ذاتها** : اي من حيث ثبوتها أولا ، ثم ثبوتها بصيغة كذا ، وبمعنى كذا ، أو تنوعها اللهجي ومصدر ثبوتها وتنوعها (دخيل ، مولد ، لغة عقمى ، مصطلح الخ) ، ثم كيفية وضعها وتحليل أجناسها الدلالية (مشترك ، مترادف ضـد الخ) . اما النحو فيعالج هذه المـادة لا في ذاتها بل فيما هو راجع الى **صـورة** عناصرها افرادا وتركيبا (68) .

الدراسات اللغوية في أوربا في القـرون الوسطى :

بعد القرن السـادس الميلادي ، أي بعد بريسيانو والنحاة الذين عاصروه حتى القرن الثاني عشر لم يطرأ شيء جديد يستحق الذكر ، فقد دخلت البلدان الاوربية اثر انهيار السـؤدد الروماني في سبات عميق دام عـدة قرون . وهذا السبات ليس معناه الوقوف المطلق عن كل نشـاط فكري ، انما هو انقطاع النشـاط الخلاق واندثار المفاهيم النشيطة وقيام مفاهيم مجمدة واهية مقامها . وهذا الذي حصل فان أغلب ما كان يدور في مجالس الرهبان آنذاك (وكان أكثر المثقفين من الرهبان) ومحاضراتهم هو التعليق على ما قاله دوناتو وبرسيانو مع سوء فهم أحيانا لمحتوى تعاليمهما ، واستمرت أوربا على هذه الحال حتى طرات على الثقافة الغربية طوارىء آذنت بانبعاثها ، ولـكن ما تحقق هذا الانبعاث بالتمام ــ كما سنراه ــ الا في القرن السـادس عشر .

اما الطوارىء فهي تلك الاحداث التي مكنت الغرب من الاحتكاك لاول مرة بالحضارة الاسلامية مباشرة فكانت الحروب الصليبية أولا ، ثم صدمات حربية أخرى وقعت في كل من اسبانيا وصقلية ، فتبعتها ، بعد اطلاع الاوربيين على رقي المسلمين ، حركات اقتصادية واستطلاعية واسعة النطاق ، ورحلات في طلب العلم من أوربا الى عواصم الاندلس والمغرب العربي تزايد عددها يوما بعد يوم . وبدأت عند ذلك ترجمة الـكتب العربية الى اللاتينية ، وبدأ المترجمون بكتب الفلسفة والمنطق والطب والعلوم الطبيعية والرياضية فانكب الناس على دراستها وعند ذلك تسربت الى أذهانهم من بين المفاهيم اليونانية والعربية مفاهيم لغوية جديدة استحسنوها وامتثلوها فأدخلوها في دراستهم وهكذا يكتشف اليوم مؤرخو اللسانيات أن الـكثير من مفاهيمها التي يعتبرونها جديدة كان قد أشار اليها المدرسيون (scolastiques) في القرون الوسطى (69) .

---

(67) أو على جزء منه وهو الذي شغل كل العلماء في القرن التاسع عشر وهو الدراسة المقارنة التاريخية للغات أو ما كانوا يسمونها في أول أمرها : « النحو المقارن » أو الفيلولوجية التاريخية والمقـارنة .

(68) وكأن « اللغويون » المستقرون يهتمون أيضا بالتراكيب على مثل اهتمامهم بالمفردات الا أن مهمتهم في ذلك كانت مقصورة على الجمع والاستقراء والتثبت من وجودها بالفعل في كلام الفصحاء من العرب ويتركون تحليلها للنحاة ان لم يكونوا هم بأنفسهم نحاة (وكذلك تحليل المفردات في صورتها وبنيتـها) .

(69) انظر : Lyons ، **المصدر المذكور** ، ص 15 — 16 ، و Mounin **Histoire de la linguistique** (ط. باريس 1967 ، ص 114 — 115) . و R. H. Robins **Ancient and Mediaval Grammatical Theory in Europe** (لندن ، 1951 ، ص 69 — 90) وغيرهم .

لقد وصلت هذه الكتب المترجمة الى اللاتينية (70) فى أواخر القرن الثاني عشر الى ايطاليا وفرنسا واوربا الشمالية ، فغزت الثقافة الفلسفية والعلمية العربية الكثير من أذهان الاساتذة الشبان والمتعلمين ، فأحسوا حينئذ بالجهل الذي كان يحفهم ويحف الاساتذة الذين سبقوهم ، واكتشفوا باطلاعهم على تلك الكتب ، الفلسفة اليونانية ومذاهبها في علم اللسان وفنونه ، وبالخصوص أرسطو ومنطقه وما زاد عليه الفلاسفة العرب من لطائف المفاهيم ودقائق المناهج ، وكان تعليم اللاتينية من قبل (وحتى القرن الرابع عشر) والدراسات النحوية والبلاغية بصفة عامة عبارة عن تقليد أعمى للمشايخ المتأخرين من الرومان وشراحهم (دوناتو وبرسيانو بالخصوص) لا يسمع أحد من الدارسين (الا القليل) شيئا مطلقا عن الثقافة اليونانية الاصيلة ، فكانت الدراسات اللغوية لا تتجاوز المعايير التعليمية الميتة يتناقلها الشيخ عن الشيخ بدون ما نظر ولا جدال ولا اية محاولة لتجديدها . فلما تدفقت الكتب العربية وآل الامر في معاهد العلم الى اولئك الذين انهالوا وتهافتوا عليها زعزعوا مباني المجتمع المثقف ، وكانت ثورة على المعيارية والتقليد ، الا أن هذه الثورة لم تنجح ، فالغريب أن كل هذا الذي أحدثوا سرعان ما دخل في حيز النسيان بعد القرن الخامس عشر وما بقي الا عند عدد قليل جدا من العلماء تفطنوا الى قيمته فتناقلوه جيلا بعد جيل في عزلة تامة عن جمهور الناس حتى آل الى فون هومبولت (71) وفرينان دي سوسور في القرن التاسع عشر، وسنرى فيما بعد أسباب هذا الفشل .

انالاتجاهات الجديدة التي يلاحظها المؤرخ عند دراسته للقرن الثالث عشر هي هذه :

الأولى : هي الاعتماد على النظر والاستدلال العقلي فى البحوث اللغوية اعتمادا جوهريا وعدم الاكتفاء على هذا ، بالاطلاع المجرد من كل تحليل على ما ينقل من احداث اللغة اللاتينية ،

الثانية : هي احياء البحث في النظريات اللغوية العامة التي لا تخص لغة معينة ، والقاء بعض الاضواء على آراء القدامى تستمد من الفلسفة بمعناها الذي عرفه أولئك القدماء أي الحكمة التي يدخل فيها جميع العلوم : الدقيقة والطبيعية والانسانية ، وبالاخص علم اللسان العام والمنطق الذي كان عندهم معيارا عاما لكل العلوم التي ذكرناها (72) .

---

(70) أغلب هذه التراجم جرت فى اسبانيا ابتداء من القرن الثاني عشر . وأشهر المترجمين هم Gundissalinus (فى عاميتهم Gondisalvi) وابن داود اليهودي (Avendauth) و Girardo Gremonensi المتوفي فى 1187 و Johanes Hispanus وغيرهم (وكان سبقهم الى ترجمة الكتب العلمية بعض الرهبان فى صقلية) .

(71) سنتكلم عنه فيما بعد ان شاء الله .

(72) قارن تعريفات الفلسفة التي روجها العلماء العرب : « الفلسفة معرفة **طبيعية لجميع** الاشياء **الموجودة** » و « معرفة الأشياء الانسية يعنون الأشياء **المدركة بالحواس** » . (انظر **الايضاح فى علل النحو** للزجاجي ، نفس الطبعة ، ص 47) . وبين أن هذا تعريف للعلوم التي كان يضمها هذا الذي يسمونها فلسفة . وأهم شيء فيه هو لفظ « جميع » ولفظ « المدركة بالحواس » . وقارن أيضا هذه المقايسة التي أقامها الفارابي بين المنطق والنحو (وقد شاعت عند المناطقة حتى اصبحت من المبتذلات) « كل ما يعطينا علم النحو من القوانين فى الالفاظ فان علم المنطق يعطينا نظائرها فى المعقولات » (**احصاء العلوم** ، نفس الطبعة ، ص 12) .

الثالثة : هي البحث عن علل النحو والاعتماد على تفسير القواعد أكثر من الاعتماد على تفسير النصوص الادبية . وهذا ناتج عن الاتجاه الاول ، فقد كان المدرسيون مولعين بالبحث عن الـكليات والاسباب التي لاتتخلف (عند العرب : البحث عن الاصول وعدم اقتصارهم على الفروع) وترتب على هذه الاتجاهات بعض الاعتبارات العامة ، فمنذ ذلك الحين عـدوا النحو وكل الدراسات اللغوية الاخرى **علمـا** مستقلا **قائمـا بنفسه** ، ولم يعتبر فنا من فنون الاداب والخطابة ، ولا صنعة خاصة لكسب السلامة اللغوية فقط — وان كان يعترف الجميع أنه مادة ضرورية في تعليم اللغة الا أنهم لم يكتفوا بالنحو التعليمي التقليدي الذي كان يكتفي أصحابه بتكرير أقوال النحويين السابقين . ومن ههنا نرى تلك النظرية التي استغرب اللغويون فى زماننا من وجودها عند أولئك الذين كانوا يظنونهم ، قبل اليوم ، من أبعد الناس عن العـلوم اللسانية . فظهر لهم بعد أن تجردوا عن كل حكم سابق ورجعوا الى نصوصهم الاصلية أن الكثير مما كانوا يقولونه قريب جدا مما أثبتته البحوث الحديثة أو هو المصدر الاقـدم (بالنسبة الى أوربا) لبعض المذاهب اللغوية الحديثة . ومن المبادىء الهامة التي تدخل في هذه النظرية نذكر **مبدأ وحدة النحو** في الالسنة البشرية ، فقد ذهبوا الى أن الآليات التصريفية التركيبية تتحد في أصولها في جميع الالسـنة وأما الصفات التي تختلف فيها فان هي الا فروع وعوارض . يقول أعظم ممثل للحـركة العلمية عندهم وهو : روجير بيكون Roger Bacon (1214 — 1294) « ان الغراماطيقي بحسب جوهره واحد فى جميع اللغـات ، وان كانت تتنوع تنوعا عرضيا » (73) . وكتب مؤلف مجهول فى ذلك الزمان : « ان الذي يعرف الغراماطيقي في لغة معينة يعرفه أيضا في لغة أخرى بالنسـبة الى جميع ما يدخل في جوهره . أما أن لا يقدر أن يتكلم بها ولا يفهم من يتكلم بها فهو لاجل اختلاف الالفاظ واختلاف تكونها ، وهو أمر عارض بالنسبة الى الغراماطيقي » (74) . وهذا اداهم أيضا الى تغيير نظرتهم في مدلولات الالفـاظ فان الذي كان يراه الفيلولوجي هو أن اللفظ يدل على مدلوله الشخصي والنوعي مباشرة ويرون هم انه يدل عليه بواسطة الصورة الذهنية التي تنتج عن تصور النفس للشيء

---

(73) فى النص اللاتيني : « Grammatica una et eadem est secundum substantiam in omnibus linguis licet accidentaler varietur » .(**La philosophie au Moyen âge,** E. Gilson, Paris, 1964 p. 405).

وانظر أيضـا : Lyons : **المصدر المذكور** ، ص 15 .

(74) راجع المصدرين المذكورين . ننبه القاريء أن هذه الفكرة قد أشار اليها ابن جني فى **خصائصه** (نفس الطبعة ، ص 243 الاسطر 9 — 11) واقدم من بلغنا عنه الراي بأن أقسـام الكلم ثلاثة : اسم وفعل وحرف فى جميع اللغات هو المبرد انظر **المقتضب** . ط. القاهرة 1385 ، ص 3 .

وكان للفارابي فكرة أعلى من هذه وجد سابقة لأوانها وهي البحث عن نحو عام و **كلي** يناسب هذا النحو الخفي الذي ينطبق بالفعل على جميع اللغات (انظر P. Kraus ، **جابر بن حيان والعلم اليوناني** ، القاهرة 1942 ، ص 42) . وهذا هو مصدر كل الجهود التي بذلها من جاء بعده فى ايجاد ما يسـمى بـ Grammaire générale و Langue universelle وخصـوصـا Raymond Lulle و Leibniz ولا ننس دور الرياضيات العربية فى تنمية هذه الفكرة (راجع كتابنا فى علم العربية) . أما تمييزهم بين الجوهرى والعرضى الذى أخذه الفلاسـفة العرب من أرسطو وكيفوه بما تقتضيه العربية (= combinatoire «قسـمة التركيب» : والقسـمة عند النحاة العرب غير القسـمة عند افلاطون فالاول هو مفهوم رياضي والثاني هو تفصيل فلسفي للاشياء الى جنس ونوع وفصل ، الخ) ، فهو الأساس الذي بني عليه علم اللسـان الاداني بتمييزه بين ما هو ذاتي وما هو غير ذاتي ولا مؤثر فى أداء المعاني والمقاصـد .

المدلول عليه (75) . ولهـذا أهمية عظيمة جدا لانهم راجعوابذلك فكرة قديمة رسخت فى أذهان العوام والخواص ، وهي أن كيفية أطلاق الواضع الالفاظ على الاشياء لايختلف فيها أحد من الناس ، ولإن اختلفت الالفاظ بين لغة واخرى فان تخصيص الشيء **المعين للفظ ما مرتبط بتصور الواضع لذلك الشيء** ، وعلى هذا فاللغات تختلف لا بالفاظها فقط ، بل بحسب تصور اصحابها لما يحيط بهم من الاشياء وسنعالج هذا الموضوع بالتفصيل عند تعرضنا لمذهب دي سوسور .

ومن ذلك ايضا : ضرورة **التقدير** في النحو لتفسير الابنية والتراكيب التي تعتريها بعض التحولات فى سعة الكلام ونظمه (مثل الحذف والتقديم والتأخير وغيرها) وهذا سوف يؤثر ايما تأثير في التعليم الاوربي وسيثير حتما الكثير من المبالغات والتعسفات خصوصا في العصور التالية لعدم اعتماد المعلمين على الوسائل العقلية التي استعملها النحاة العرب الاولون (وهم أول من لجأ الى التقدير) ، واقاموا على اساس هذه الافكار والمبادىء نظرية فرعية اعتمدوا عليها فى تحليل اللغة ، وهي النظرية المسماة بالـ *Modi Significandi* ومعناه أحوال الدلالة (اللفظية) وهذا يكون فى الحقيقة القسم الثالث من اصناف الاحوال ، فهناك الـ modi essendi ومعناه أحوال الموجود وهي بالذات او الجوهر والعرض وغيرهما ، والـ modi intelligendi ومعناه أحوال المعرفة وبابها المفاهيم المنطقية الصرفة ، وهذا القسم الثالث الذي يتعلق بدلالة الالفاظ وهو الموضوع الاهم لعلم اللسان عندهم . ويعنون بأحوال الدلالة أنواع الدلالات التي **تعرض** لنفس الالفاظ فى سياقات مختلفة ، وهذه الاحوال تتنوع بتنوع جهات الاعتبار ، فان اللفظ يدل قبل كل شيء على معناه الذي وضع له في الاصل وبهذا تنقسم الالفاظ الى الاقسام الثمانية Partes orationis(كما حدها برسيانو عن النحاة اليونانيين) : ما يدل في أصل وضعه على ذات وعرض فهو اسم ، ما يدل على ثبوت أمر في زمان معين فهو فعل ، وهكذا .. ويسمون المدلول الاول للكلمة مدلولا أصليا أو جوهريا أو مستمرا permanentis أو essentialis أو Significatio principalis أما أحوال اللفظة الاعرابية وانواع تصاريفها فهذه مدلولات ثوان وعرضية عندهم Secundaria et accidentales تعرض لنفس اللفظة في مختلف هذه الاحوال . وهذا أمر غريب منهم لانهم لم يتبينوا أن هذه المدلولات الثواني لا يدل عليها اللفظ كله ، بل جزء واحد منه ، وهو فى الكثير من اللغات العلامة الاعرابية أو الحروف الزوائد ، (صيغة الكلمة في اللغة السامية) ولكن هذا يقتضي من اللغوي تحليل اللفظة الى مادة أصلية تحمل المعنى الاصلي وزيادة أو صيغة تحمل المعنى الفرعي ، وأعجب من هذا أن لا يكون أحد من اللغويين اليونانيين ولا الرومانيين ولا هؤلاء الذين نتكلم عنهم الان قد استطاع أن يجري هذا التحليل وان لا تكون أوربا عرفته الا في القرن التاسع عشر ، أي بعد أن اطلع نحاتهم على التراث الهندي اللغوي (76) .

(75) انظر اقوال العرب فى ذلك فى **المزهر** ، ط. الثانية . القاهرة ، 1 ص 32 وكتب المنطق المطولة وأصول الفقه (**كالمحصول** لفخر الدين الرازي)

(76) وقد منعهم من الاطلاع على التحليل العربي للفظة (الى اصل وزيادة وصيغة) عدم وجود هذه المفاهيم اللغوية المحضة فى الكتب المترجمة التي وصلت اليهم وذلك لقلة اهتمام الفلاسفة العرب بما هو راجع الى صميم المنهج التحليلي اللغوي . الا ان أكثر ما نقل فى هذه الكتب من المفاهيم المنطقية اللغوية التي أخرجها العرب موجود عندهم (بعضه مشوه والبعض الاخر مطور) ومن ذلك التمييز الاساسي بين الدليل اللغوي حالة الاستعمال ولفظه هذا عند الاختبار عنه وتنزيله منزلة الاسم وذلك مثل « ضرب » فى « ضرب زيد » ولفظه فى قول النحوي : « ضرب فعل ماض » وهذا يعرفه جيدا نحاتنا وقد وجد بعدهم فى كلام الـ Scolastiques (ولا وجود له عند من تقدم من النحاة) .

والف ناس كثيرون في الـ Modi significandi وسموا هذه الصنعة grammatica spéculativa (الغراماطيقي النظري ، وهذا عنوان أحد هذه المؤلفات حرره توماس الارفورتي فى ابتداء القرن الرابع عشر) ولقب أصحابها بالـ Modistœ (الاحواليون) واشتهر منهم Michel de Marbais و Siger de Courtrais وكان قد بدأ يتعرض قبلهما الى النحو بهذه الطريقة هـليي (أو هليـاس) Pierre Hélie الفـرنسي (المتوفى فى 1150) و Robert of Kilwardby الانكليزي ، وظهرت أيضا في النصف الثاني من القرن الثـالث عشر رسالتان اشتهرتا شهـرة عظيمـة ، احداهما الـ *Doctrinale puerorum* (= تعليم الصبيان وعرف باسم Doctrinale) للاسكندر دي فيلاديي (Alexander de Villadei) وهي منظومة شعرية تحتوي على وصف وتعليـل اللغـة اللاتيـنية ، والثانية وهي أيضا منظومة بعنوان *Grecimus* نظمهـا ابرآردو البثوني (Evrard Bethune وأصبحت هـاتان الرسـالتان في ابتـداء القرن الرابع عشر المعتمد في تدريس النحو اللاتيني ووضعت عليها الشروح والحواشي الـكثيرة ففضلوها على كتب دوناتو وبريسيانو وقررت الجامعات الاوربية تدريسها فى طلوشة عـام 1329 وباريس فى 1366 وفيـينا فى 1389) .

ويجب أيضا أن ننوه بما جاء به رجل يعتبره الان المؤرخون رائد الطريقة التجريبية فى أوربا ، وهو روجير بيكون الذي ذكرناه منذ قليل ، فقد كتب بيكون كثيرا فى موضوع العـلوم وضرورة تأسيس المعرفة العلمية على **التجـربة** والحـس والمشاهدة أولا وآخـرا (77) ، أي الا يلجـأ في ذلك الى النظـر وحـده (nuda demonstratio) لانه وان كان ضروريا لترتيب المعلومات الحاصلة بالحس وجعلها معقولة بالـكشف عن عللها الا أنه غير كاف لاثبات الحقائق العلمية ، فلا حقيقة علمية الا تلك التي تنبثق من التجـربة وتصححها بعـد النظـر فيها تجـربة أخـرى . وقد الف كتـاب : *Summa Grammaticae* وكتب في نحو اللغة اليونانية واللغة العبرية (78) .

أما فشل الحركة المنطقية اللغوية وتقهقرها بعد القرن الخامس عشر ، فيمكن أن تنحصر فى هذه الأسباب : الاول من هذه الاسبـاب هو استمرار عادة التقليد حتى عند هؤلاء الثائرين على التقاليد التعليمية النحوية لانهم وان كانوا قد تفطنوا الى عقمها

---

(77) ان هذه الكلمات العربية نفسها هي التي كانت تدور على ألسنة الدعاة الى الطريقة التجربية بصورتها اللاتينية : per **experimentum** et longitudinem **testimonii** (ترجمة للعبارة : « بالتجربة وطول المشاهدة » (**احصاء العلوم** ، ص 66) وهي كثيرة جدا فى كتب ابن جني والمتكلمين والأصوليين وابن سينا وغيرهم . أما كلمة حس فكانوا يترجمونها بـ (testificantur per) **sensum** = « المشاهدة بالحس » . أما فعل testificor واسم testimonium فهما اللفظان اللذان بنى بيكون على مفهومهما العربي (شاهد الاحداث مشاهدة بالحس لاثبات الحقائق العلمية) العـلم الحسي التجـريبي (= Scientia experimentalis) وهذه العبارة نفسـها : **علم التجربة** يستعملها الجاحظ (**كتاب الحيوان** ط. القاهرة 1940 ، 1 ، 11) .

(78) هذا راجع الى تأثره الشديد بما فى كتاب **القانون** لابن سينا وكتاب **المناظر** لابن الهيثم وكلاهما تأثر من حيث المنهج بما جاء به الفارابي وعلماء الكلام والأصول والمنبع الأول هو ما رأوه من طريف المناهج عند اللغويين والفقهاء الأولين (أبي عمرو بن العلاء والخليل وأبي حنيفة وأصحابه ومن جاء بعدهم) . ثم لا بد أن نتذكر أن روجير بيكون ينتمي الى الحلقة العلمية التي تكونت فى اكسفورد بانكلترا وكان أصحابها قد انكبوا بلهف على ما ترجم من العلوم الرياضية والطبيعية العربية وألفوا فى ذلك كتبا قيمة كانت هي الأولى من نوعها فى أوربا . ولا شك أن هذه الحلقة كان لها تأثير عميق فى المذهب الحسى الانكليزى (نشرت كتب بيكون النحوية فى كامبريج عام 1932) .

وجمودها ، فانهم ما فعلوا أكثر من أن استبدلوا تقليدا بتقليد : اذ بعد أن وجهوا أنظار الناس الى النقص الفظيع الذي كان يتصف به التعليم والبحث ونبهوهم على ضرورة الرجوع الى النظر واستخدام الوسائل العقلية وأهمية ما وجدوه فى التراث اليوناني وما نقل اليهم مما أبدعه العلماء العرب فانهم لم يتجاوزوا كل ذلك بل بقوا فى غالب الاحيان (79) مرددين لاقوال أرسطو والفارابى وابن سيناء وغيرهم ، ولم يزيدوا عليهم الشيء الكثير . وأما السبب الثاني : فهو بكور الزمان الذي نشأت فيه هذه الحركة وعدم نضوج العقول — لعدم تعميم التعليم — وقلة استعداد المثقفين على الابداع والخلق وتحصيل المعارف الجديدة ، وكل هذا يعلل أيضا الوضع الاجتماعي الذي كانوا يعيشون فيه والثالث من هذه الاسباب : وهو شديد الارتباط بالاخرين ، هو قطعهم الصلة — قطعا باتا — بين جانبين متلازمين من البحث المنهجي الصحيح ، وهما : الدراسة النظرية الاستدلالية ، والدراسة الاستقرائية التصفحية ، وبالاحرى . قل انهم تهاونوا تهاونا تاما بجانب الحس والمشاهدة رغم وجود مثل بيكون فى ذلك العصر وبنوا كل محاكماتهم على عدد قليل جدا من الامثلة وكلها كانت — أو تكاد — مما وجدوه في الكتب النحوية القديمة التي كانوا يعرفونها (وما أخذوا منها الا القليل كما قلنا) أو ما وضعوه من الامثلة السمجة الغثة (كأمثلة البلاغة التفتازانية : رأيت أسدا فى الحمام !) (80) ومن ثم نفهم موقف أهل العلم والادب في القرن السادس عشر من الاحكام والمناهج التي اتصفوا بها وان كانوا قد ظلموهم في ما قالوه عن أسرار الدلالة الوضعية وما نقلوه من الافكار الشديدة فى مجارى اللغة فانهم لم يبالغوا عندما شددوا عليهم واستنكروا ازدراءهم واستهانتهم بالشاهد والحس أي — بالنسبة الى النحو وعلم اللسان اللاتيني — بكلام فصحاء الرومان وشعرائهم الذي كان يجب أن ينطلقوا منه ويرجعوا اليه عند كل حكم ومحاكمة .

---

(79) لابد أن نشير أيضا الى وجود بعض التآليف فى وصف اللغات الأوربية (وهذا حادث غريب لان اللاتينية هى وحدها كانت موضع الدراسة اللغوية) . وأقدمها هى الـ **Auraicept** الارلندية ومؤلفها توفى فى 679 م. (طبع فى ايدانبروج عام 1917) ثم كتاب طريف جدا سابق لأوانه (القرن الثانى عشر) يصف فيه صاحبه (مؤلف مجهول) النظام الصوتي للغة الاسلندية (نشره R. Rask فى 1818) .

(80) ان جمود الفكر الأوربي فى القرون الوسطى وجمود الفكر العربي بعد القرن السادس الهجري يتشابهان شيئا ما (التقليد واحد فى جميع بلدان الدنيا) . فمما يدل على التحجر الفكري فى كل عصر وبلد الاستهتار بالشروح والتعاليق والاقتصار عليها وحدها **وعدم الرجوع الى الأصول أبدا** بل الاشمئزاز من النص المتقدم الاصلى وتفضيل النص المتأخر الذى هو عالة عليه لا يزيد عليه ولا يوضحه بل يشوهه وينقص عنه قيمة والهوس الذي يصيب المقلدين من المؤلفين وهو الولوع الجنوني باختصار المطولات وتطويل المختصرات كل ذلك بدون فائدة الا الالغاز والحشو ، والميل الى نظم القواعد شعرا وافناء العقل فى تحليل الأشياء التافهة وتحصيل الحاصل . هذا وليس كل شرح يصدر عن مقلد بل هناك من الشروح ما يزيد العلم تقدما — وهذا مثل شرح السيرافي لكتاب سيبويه ولكن السيرافي لم يكتف فيه بترديد عبارة سيبويه بصور مختلفة من اللفظ بل دخل فى أعماق معانيه فأثراها ايما اثراء وكذلك هو الحال بالنسبة الى شرح ابن جني لتصريف المازني فكأنه كتاب ابتدعت أكثر معانيه . ثم ان العصور التي تلت القرن السادس قد شاهدت ظهور بعض الأفذاذ العباقرة من العلماء وذلك مثل الرضى الاستراباذي وابن تيمية وابن خلدون ، الا أنهم كانو منعزلين غير منسجمين مع معاصريهم الذين غلب عليهم التقليد .

الدراسة اللغوية فى أوربا من القرن 16 الى 19 م :

استوفت بلدان أوربا بعد القرن الخامس عشر جميع أسباب النهوض : فقد توحدت هذه البلدان فى داخلها ، سياسيا وتحررت فيها بعض الطبقات عن سلطة الاشراف الدهاقنة فخفت عليها بذلك وطأة الاقطاع ونشطت التجارة وكثرت التنقلات فى داخل البلاد واشتاق الناس الى الرحلات البعيدة فتسابقوا الى ذلك ووقعت تلك الاكتشافات الجغرافية العظيمة التي انقلبت بها أوضاع العالم القديم . وعند اتصال الاوربيين بعضهم ببعض على أساس المسالمة والتعارف احتاج الفرد منهم الى أن يتعلم اللغة السائدة فى البلاد التي يزورها ، وعند ذلك ظهرت الكتب الخاصة بتعليم الفرنسية والانكليزية والاسبانية وغيرها (81) وهذه اللغات كانت في أصلها لهجات اقليمية لجماعة معينة من الفرنسيين والانكليز والاسبان وغيرهم فتغلبت على غيرها من اللهجات المحلية بحكم التوحيد السياسي ، ولانها كانت في الغالب لغة الملك أو السلطة التي تم على يديها التوحيد الجغرافي السياسي ، ولم يحدث هذا بمحض الحظوة التي كانت تحظى بها لغة البلاط الملكي بل بقرار من الحكومة ، فقد امر لويس الثاني عشر فى فرنسا (عام 1510) باستعمال الفرنسية — بدلا من اللاتينية — في المرافعات الجنائية . وأصدر فرنسوا الاول في 1539 ذلك الامر الذي اشتهر باسم Villers - Cotterets القاضي باستعمال هذه اللغة فى جميع الادارات الحكومية . وكان من حظ القوميات اللغوية التي نشأت في ذلك الزمان أن اخترعت المطبعة فساعدت كل دولة على نشر لغتها الرسمية فى داخل أراضيها وخارجها ، وكثرت عند ذلك الكتب فى وصف هذه اللغات القومية كثرة لم يشاهد لها مثيل ، نذكر منها الكتاب المسمى *Grammatica Castellana* (وهي اسم اللهجة الاسبانية السائدة) لانطونيو دي نبريجا (1492) وفى اللغة البرتغالية : *Grammatica da linguagem portuguesa* لفرناندو دى أولفيرا (1536) والـ *Tretté de la grammere françoeze* للويس ميجري L. Meigret عام 1550 ، وكذلك فى اللغة السائدة فى فلورانس *Della Lingua che si parla e siscrive a Firence* لجيا مبولاري (Giambullari) ، عام 1551 وغيرها كثير . وتشعرنا هذه التأليفات بالرغبة الشديدة فى تثبيت اللغة القومية الرسمية واظهار خصائصها ومزاياها وانها ليست عاجزة عن التعبير بما عبرت عنه اللاتينية واللغات الاخرى . وقامت ، في نفس الوقت ، كما يحدث ذلك دائما فى مثل هذه الظروف مجادلة واسعة النطاق حول اصلاح الكتابة أو على الاصح حول القواعد الاملائية الخاصة بكل لغة ، فكثرت الاقتراحات والمشاريع ، وكان من بينها مشروع Meigret المشار اليه وراموس (Ramus) وكانا قد اقترحا حذف الحروف الخطية الدالة على الاصل اللاتيني ولم يكن أحد ينطق بها لانها زيدت فى الخط فى القرن السابق لاهتمام النحاة آنذاك بربط الكلمة العامية بأصلها اللاتيني ، وكانوا قد تجاوزوا الحد لانه ليس كل ما في الفرنسية من اصل لاتيني ، هذا بصرف النظر عن التوهم والجهل بالاشتقاق والتأصيل . فثقل الرسم بسبب هذه الزوائد المتطفلة ولم ينجح أي مشروع من هذه التي اقترحوها — الا فى أشياء طفيفة — وبقيت القواعد الاملائية الفرنسية والانكليزية على ما هي عليه الان في أكثر مظاهرها . وكان مما ترتب على هذه الدراسة للامور

---

(81) مثل ما نشر Percyvall فى تعليم الاسبانية للانكليز وما كتبه Berkley لتعليمهم الفرنسية (1521) وأشهر من هذا كتاب : **Esclarcissement de la langue françoyse** لجون بلكراف (J. Palsgrave) (أول طبعة فى 1530) .

الاملائية أن اهتم أصحابها بالاصوات اللغوية التي كانت تنبني عليها لغاتهم ، وقد وصل الينا من أحدهم : J. Matthias (من 1538 الى 1586) كتاب قيم جدا فى تحليل الاصوات الدانماركية اسمه : *De literis libri duo* الا أن الطريقة التي اتبعوها فى تحليل الآليات النحوية كانت خاضعة لطريقة النحاة الرومان — كما سبق أن قلناه — وكل ما تظهر طرافته فى هذا العصر فمأخوذ عما تركه أهل القرن الثالث عشر بما فيهم اللغويون والمناطقة والتجريبيون . وكانت هذه الاشياء الطريفة معزولة عن الحركة الانسية(Humanisme) لتي دعت الى احياء الآداب القديمة وهي في أصلها رد فعل عنيف على الـ Scolastique التي أهملت تماما هذه الآداب كما رأينا ، وقد أولع جميع المثقفين حينذاك بكل ما أنتجه الادب اليوناني والادب الروماني وتركوا ، بالنسبة الى الدراسات اللغوية كل المفاهيم والنظريات المنطقية اللغوية التي كان تعلق بها علماء القرن الثالث عشر (82) . أما هذه النظريات فقد كان لها امتداد فى دراسات Scaliger في **علل اللغة اللاتينية** *De causis linguae latinae* نشر فى 1540 ويقول مؤرخو اللسانيات أنه المصدر الاقرب الى النحو العام « الذي تسلسل التأليف فيه من ذلك العهد الى القرن التاسع عشر » وجاء بعده مؤلف آخر عبقري حقيقة وهو فرنسيسكو سانتشيس (F. Sanchez واسمه اللاتيني Sanctius) له كتاب : *Minerva* (طبع فى سلامانكا فى 1587) وأعجب به النحاة فى القرنين السابع والثامن عشر كما أعجبنا به نحن أيضا في عصرنا (83) . والحق انه استوعب فيه جميع النحو ، وبلغ تحليله للمفاهيم والابواب النحوية حدا بعيدا من الدقة العلمية والضبط المنهجي ، وقد اطلع على مؤلفات النحاة العرب وذكر ما كان لهم من آراء .

وظهرت فى القرن السادس عشر أيضا — ولاول مرة فى أوربا — دراسات فى اللغات غير الاوربية ، وهذا ناتج كما قلنا عن كثرة الرحلات والتوسع الاستعماري والتبشيري فقد رحل بعض الرهبان الى الصين واليابان وأمريكا واهتموا بلغات الشعوب والاقوام الذين اتصلوا بهم هناك ، كما ألف G. Postel كتابا فى نحو اللغة العربية وبدأ الناس يحررون أيضا المعاجم المتعددة اللغات ، ونذكر منها الـ*Dictionarium* لـ R. Calepino في ايطاليا في 1502 في سبع لغات والـ *Mithridates* (طبع فى زوريخ فى 1555) وقد ذاع صيته فى أكثر بلدان أوربا .

واستمر الاهتمام باللغات الاجنبية فى أوربا فى القرن السابع عشر (وسيستمر الى يومنا هذا) وتزايد عدد المعاجم بكيفية عجيبة وظهرت أيضا ترجمات للكتاب المقدس بعدة لغات فى المجلد الواحد . ومن المعاجم الضخمة نذكر *Thrésor de l'histoire des langues* لكلود دوري (A. Duret) المطبوع فى كولونيا فى 1613 ، والـ *Thesaurus polyglottus* لمزيجر (J. Mesiger) الذي كان يحتوي على مفردات من 400 لغة (طبع فى فرنكفورت عام 1603) . أما الدراسات لاصوات اللغة فبدأت تأخذ شيئا فشيئا صبغة علمية حقيقية وذلك بعد أن ظهرت تلك الاوصاف التعليمية للغات الاجنبية فى القرن السابق وحفزتها المجادلة حول اصلاح الكتابة ، وأحسن بحث صدر فى فرنسا هو الـ *Discours physique de la parole* لجيرو دي كورديموا (Geraud de Cordemoy)

---

(82) بدأ العلماء يهتمون أيضا بدراسة اللغة اليونانية واللغة العبرية وحملهم على هذا ذلك الولوع بالآداب القديمة ورغبتهم فى الاطلاع على اللغة الاولى للآدميين وكانوا يظنونها العبرية لنزول الكتاب المقدس بهذه اللغة .

(83) وقد طلبنا من أحد زملائنا فى معهدنا أن يقوم بدراسة لهذا الكتاب وترجمته .

(طبع في 1668 (84) وظهر قبل ذلك في هولندا كتاب *Spreeckonst* لبطرس مونتانس (1635) يصف فيه الاعضاء الصائتة وحركاتها عند التصويت ، كما وصف روبرت روبنسون أصوات الانكليزية في كتاب له أسماه *The art of pronunciation* (نشر في 1617) وخصوصا جون واليس (John Wallis) في الفصل الاول من كتابه في نحو اللغة الانكليزية : *Grammatica linguae anglicanae* طبع في أكسفورد في 1952 ، وكلا الكتابين (وكتب أخرى) موجه بالاخص الى علاج الصم البكم . وأول من توفق شيئا ما في تصوير مخارج الحروف هو جون ويلكنس John Wilkins في كتابه : *Essay towards a real character* (نشر في 1668) .

اتخذ النحاة الوصفيون في القرن السابق لغة الثقافة بصفة عامة لاستخراج معاييرها ، أما في فرنسا فابتداء من ماليرب (Malherbe المتوفي 1628) اقتصروا على لغة الحاشية الملكية واعتبروها أجود اللغات وأسلمها ، وحارب ماليرب الفوضى التي كانت تسود اللغة الفرنسية ودعا الى التخلص ، في الكلام « الفصيح » من التصنع في التراكيب والالفاظ المولدة واللهجية واللغات القديمة العقمية (85) فخضعت له جميع الاوساط المثقفة ، وهكذا أثروا اللغة الفرنسية بافقارها ! أي بازالة اللغو والحشو وابقاء العناصر الاساسية بضبط معانيها ضبطا محكما . وبهذه اللغة كتب راسين تلك التحف الادبية المعروفة ، وهي الان لغة التعليم والادب والفنون . وأشهر من هؤلاء النحاة بعده فوجلا (Vaugelas المتوفي في 1650) ودون ملاحظاته في : *Remarques sur la langue française* (أول طبعة في 1647) وما كان معدودا في عداد «العلماء» المتضلعين باللغات والآداب الكلاسيكية وانما اكتفى بأن يدل فقط على الاستعمال « السليم » (وهو ما استعملته حاشية الملك فقط) ، وقد نقد كتابه نقدا لاذعا أما العالم اللغوي الحقيقي (في حدود الحفظ والرواية) فهو ميناج (Gilles Menage) « الشيخ الموقر » الذي يرجع اليه كل اللغويين فيما يخص اللغة الفرنسية ، له كتاب : *Observations sur la langue française* (طبع في 1650) وكان له خصم لدود وهو الاب بوهورس اليسوعي ، واحتل هذا مكانة عظيمة بعده .

هذا فيما يخص الوصف والنحو التعليمي ، وأما النحو النظري فالاثر الذي يمثل أحسن تمثيل الحركة اللغوية المنطقية المنبثقة من الفلسفة اليونانية العربية وامتدادها السكولاستيكي هو الكتاب : المسمى بـ *Grammaire générale et raisonnée* (86) ألفه C. Lancelot و A. Arnaud واشتهر باسم Grammaire de Port-Royal لان صاحبيهما كانا يقطنان في دير بور روايال (بالقرب من باريس)وكان من أتباع المذهب الجانسيني (Janséniste) وقد تمنطق النحو على أيديهما أكثر من ذي قبل ، اذ نظرا الى الكلام

---

(84) ونشر بالتصوير (طبعة 1704) في الأيام الأخيرة .

(85) العقمي من الكلام : القديم الغريب أو الغامض .

(86) الطبعة الاولى في 1660 وآخر طبعة صدرت في 1969 .

والجملة لا كنواة لغوية تدل على معنى وتفيد فائدة (87) بل على أنه حكم ، وأن محور هذا الحكم هو « الـكلمة » (الفعل بمدلوله المنطقي الارسطوطالي) وهذا مبني على أن الـكلام عماده الفكر وأن جميع أحواله هي أحوال الفكر.. وان لم تكن أحواله أحيانا مطابقة لما تقتضيه قوانين الفكر (88) فليس ذلك الا في ظاهره ولا بد من أن يتجاوز هذا الامر الظاهر الى الحالة المعقولة (89) . من البين أن أصل هذه الفكرة هو منطق أرسطو الا أن الذي ربما لم يدركه الـكثير من الباحثين هو أن هذا المنطق قد بناه أرسطو على ما لاحظه من مباني ومجاري اللغة اليونانية . اذ ما كان يشك — مثل من تبعه فى ذلك من اللغويين — فى وجود تطابق تام بين « المنطق العقلي » و « المنطق اللفظي» (90) ، وهذا بعيد كل البعد عن آراء النحاة العرب الاولين ! (91) ولكن غايته هى الخروج الى منطق عقلي عام ببنائه على المظاهر المنطقية التي تخيلها في لغته الخاصة . (تذكر كلام المناطقة العرب : المنطقى يقصد المعـانى ، أى المفاهيم العامة لا الالفاظ) ، وأما نحاة بور روايال فغايتهم كانت بالعكس وهي الخروج الى نحو عام ببنائه على تلك المفاهيم العـامة التي استخرجها أرسطو من مجاري لغته الخاصة ! ولذلك قالا : « بما أن الـكلام حكم (أي اثبات شيء لشيء) وكلّ حكم يقع « بكلمة » Verbe

---

(87) هذه نظرة النحاة العرب فانهم ميزوا بين المعنى والفائدة فقد قالوا بأن لابد لكل كلام غير محال من معنى يدل عليه ولكنه وان كان ينبغي أن يفيد فى الأصل فقد يكون غير مفيد أي غير حامل لفائدة = لخبر يجهله السامع وذلك مثل « النار محرقة » (مثال مشهور فى النحو العربي) فان قيل هذا لمن اختبر خاصية النار المحرقة فان هذا الكلام وان كان ذا معنى الا انه لا يأتي بشيء جديد بالنسبة الى المخاطب . ولهذا أهمية عظيمة جدا لأنه الأساس الذي بنيت عليه نظرية **الافادة** الحديثة (Théorie de l'information).

(88) نعني بالفكر ههنا لا القوة العاقلة المدركة ولا البديهيات والأوليات بل العمليات العقلية فى ذاتها كالتصور والحكم والمحاكمة وقد سمى الفلاسفة العرب هذه الاخيرة فكرا . قال فخر الدين الرازى فى **لباب الاشارات** : « الفكر **ترتيب** أمور معلومة ليتأدى منها الى أن يصير المجهول معلوما » (القاهرة 1326 ، ص 2) .

(89) الغريب أن هذا الرأي الأخير ليس بخطأ ولا وهم (وان كان قد بناه هذان النحويان على توهم التطابق بين الفكر والكلام) . وهو الآن أساس لنظرية تشومسكي . ولكن لابد من التمييز بين هذه النظرية وما تصوره نحاة بورروايال (وهذا لم يتفطن اليه تشومسكي نفسه في أول الامر : الحالة المعقولة عنده هي الوضع الأول الذي يكون عليه الكلام فى دماغ المتكلم (البنية العميقة حسب تعبيره) وهو لا يشعر به فعند ما تحدث عملية ترتيبه على مخارج وحروف متسلسلة يحصل له تغيير ما . أما عند بورروايال فهي الحالة الاولى التي تطابق قوانين الفكر وهذه هي مفاهيم أرسطو المنطقـية .

(90) وكلاهما يطلق عليه لفظ الـ logos .

(91) راجع المناظرة التي حدثت فى القرن الرابع الهجري بين أبي سعيد السيرافي النحوي وأبي بشر متى المنطقي . قال فيها السيرافي : « ان مركب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة (أي امتداد) تامة وليس فى قوة اللفظ من أي لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به » (**الامتاع والمؤانسة** للتوحيدي . تحقيق احمد أمين واحمد الزين ، 1 ، 126) وتفطن السيرافي (وغيره من النحاة) الى أن هذا المنطق مأخوذ من لغة اليونان . قال : « اذا كان المنطق وضعه رجل من يونان **على لغة أهلها** واصطلاحهم عليها وما يتعارفون بها من رسومها وصفاتها فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم . ما شهد لهم به قبلوه وما انكره رفضوه ؟ (نفس المصدر ، ص 110) .

كما هو الحال فى اليونانية ، وأصل كل «كلمة» هو حرف الوجود (هكذا ترجمها العرب وهي الـ copule) فلا بد من أن يتضمن معناه فاذا قيل Petrus vivit فتقديره : Petrus est vivens وهـذه الأداة التي هي être هي جوهـر الحكم (وهـذا صحيح في لغـاتهم ! (وحبذا لو اكتفيا بذكر مفهوم الاسناد ، اذ هو أعم بكثير وليس متعلقا بلغة من اللغات ، ومهما كان خطأ هذا النحو (أي نحو بورواياك) فى تعميم ما ليس بعام على الحقيقة ، فانه قد توفق أحيانا كثيرة الى الصفات اللغوية العامة الوجود رغم اقتصار ملاحظاته على العدد القليل من اللغـات . والحق فى هذا هو أن المشاهدة للكثير من الاحداث وان كانت شرطا ضروريا للحصول على معرفة موضوعية عـامة الا أن الباحث النافذ الذهن ، البعيد النظر قد يصيب الغرض المطلوب بدون أن يلجأ اليها دائما ، بل تكفيه أحيانا التخمينات البعيدة ، وهكذا كان الخليل بن أحمد الذي قال عنه ابن جني : « . . وهذا الترجيم الذي أشرف عليه الخليل **ظنـا** قد جاء به السماع **نصـا** » . وقال : « انظر الى قوة تصور الخليل الى أن هجم به الظن على اليقين (الخصائص ، 111 و 112) .

يمتاز علماء **القرن الثامن عشر** عن علماء القرنين السابقين فى أوربا بسعة الاطلاع وكثرة مشاهدتهم للاحداث اللغوية والرجوع الدائم الى الحس ، وقد تأثروا فى هذا بالمذهب الحسى الانكليزي ، كل هذا مع المحافظة على ما استنه العقلانيون فى تثبيت سلطان العقل ، وقد زاد شغفهم بالنظر والتعليل والسعي وراء القوانين الصورية بما لا مزيد عليه . وتجاوزوا بذلك نحاة بورواياك وغيرهم الا أن هذا لم يمنعهم — وهو أمر غريب أن تتحد هاتان النزعتان بهذه الحدة — من الاعتقاد الثابت بأن كل شيء في الدنيا صادر عن الاحاسيس سواء فى ذلك المدركات والمعـاني وجميع ما هو معـلوم مشعور بـه . وفى هذا العصر انتظمت التحريات اللغوية فى صميم الاراضي المراد فحصها وكان ليبنتس (Leibniz) قد طلب من الحكومات والامراء أن يتولوا البحث باجـراء التحريات فى داخل ممالـكهم واستجاب له البعض منهم وحصلوا بعد ذلك على قائمات من المفردات قورنت فيها الـكثير من اللغات ، وذلك مثل الـ *Linguarum totius orbis vocabularia comparativa* الصـادر في سان بترسبرج سـنة 1787 ثم في 1791 ، يتناول 285 مفهـوم في 280 لغة (من أوربا وآسـيا ثم من افـريقيا وأمريـكا) . أما الاصوات فقد بدأ العلمـاء يهتمون بتحليل النغمات والايقاع فى الـكلام ونظـام المصوتات ، وهذا الذي نلاحظه في كتاب : *Essai towards Establishing the Melody and mesure of Speech* لمؤلفه Steele وكذلك *The Vocal Sounds* لهـلواج Hellwag وهو أول من وصف المصوتات وصفا علميا دقيقا ، وتبين أن أصولها ثلاثة : ضمـة ، وفتحة ، وكسرة . وان باقي المصوتات هي فروع عنها ، اما بالمزج ، واما بالامالة والتفخيم ، وبني على ذلك مثلث المصوتات الذي أصبح يسمى باسمه منذ ذلك الحين .

يمتاز هذا العصر أيضا بكثرة البحث والتأليف في اللغـات البشرية وأمور اللغـة بصفة عـامة ، فما من أحد من أعلام الادب والفلسفة والعـلوم وحتى السياسة الا وقد حاول أن يدلي برأي فى هذا الموضوع ، وكان للبعض منهم آراء جد وجيهة ونشر في **دائرة المعـارف** (أول موسوعة فرنسية) عدد كبير من المقالات حول اللغة ومنشأها ، وفى 1718 ظهر أول معجم رسمي حرره المجمع الفرنسي (وأنشىء هذا المجمع فى 1635) واستمر كذلك البحث فى النحو النظري فى أكثر بلدان أوربا وخصوصا فى فرنسا وانكلترا وصدرت فيه كتب كثيرة جدا حتى قيل عن القرن الثامن عشر أنه عصر النحو العام والنظـريات اللغوية ، والحق ان هذا العصر اهتم اهتماما كبيرا بدراسة الـكليات

الفلسفية والعلمية رغم تعلقه الشديد كما قلنا بالجزئي المحسوس . أما النحو العام الذي أصبح عنوانا لعدد كبير من التآليف والمقالات فقد نما وازدهر في فرنسا بصفة خاصة ، وممن اشتهر بالبحث فيه نذكر : دومارسي (Dumarsais) الذي كتب أكثر من 150 مقالة لغوية في دائرة المعارف (92) ثم بوزي (Bauzée) (93) ودومبرج (Domergue) (94) وكل هذه الدراسات مدينة فيما كسبته من المفاهيم الأساسية لنظريات القرن الثالث عشر (الـ Scolastique) وما زاده عليها Scaliger و Sanctius في القرن السادس عشر (وجميع ما سيصدر في هذا الموضوع فعالة عليهم كما سنراه) . الا أن دومارسي هذا الذي ذكرناه بلغ الغاية القصوى في تحليل هذه المادة وتفسير غامضها وتحديد عناصرها وتوضيح المشتبه منها حتى سبق أهل زمانه الى تحديد بعض ما هو رائج الآن من نظريات النحو وعلم اللسان الحديث . وذلك مثل نظرته الى الجملة فانه يقول : « ان الجملة (95) هي مجموعة من الكلمات تعبر ، بفضل العلاقات التي تربط بعضها ببعض عن حكم أو أي اعتبار آخر للذهن عند نظرته الى الشيء بعينه » (96) . يتضح بهذا التحديد — وبما قاله في أماكن أخرى — أن الجملة لا تكون دائما حكما منطقيا وأنها ليست جمعا محطوبا من الكلمات بل نظما مخصوصا وهذا النظم هو من أهم موضوعات النحو العام . وكذلك مفهوم الفضلة (معمول الفعل والحروف) الذي يسميه دومارسي « تكملة » (complément)وقد حدده تحديدا دقيقا — لاول مرة في تاريخ النحو الاوربي ، اذ لم يعرف نحاة اليونان ولا الرومان هذا المفهوم — وكان لهذه الدراسة أثر عميق جدا في البحوث التي ظهرت بعدها (97) .

كما ظهر في هذا العصر علمان من نوابغ الفكر الفلسفي واللغوي ، وهما كوندياك (Condillac من 1714 الى 1780) وجيمس هاريس (1709 — 1780) . أما الاول فهو فيلسوف فرنسي وصاحب المذهب « الايديولوجي » وكان له أتباع كثيرون ، له من الكتب : *Essai sur l'origine des connaissances humaines* 1746 : (رسالة في تحديد منابع العرفان) و *Traité des sensations* 1754 . والفكرة الاساسية التي بنى عليها مذهبه هي أن اللغات أدوات يستعين بها الآدميون لا على التعبير عما في نفوسهم فقط ، بل على تحليل وتحوير المعلومات الحسية التي تتأدى الى مشاعرهم بواسطة الحواس . لان المعلومات كلها من الحس (كما كان

---

(92) له من الكتب : Des Tropes (الصور البيانية) طبع في 1737 و Logique et Principes de grammaire (المنطق ومبادىء النحو) صدر في 1763 وغيرها .

(93) عنوان كتابه الكامل (طبع في 1767) هو : Grammaire générale ou exposition des éléments nécessaires du langage pour servir de fondement à l'étude de toutes des langues. (النحو العام وهو عرض للعناصر اللغوية الضرورية بتنظيمها تنظيما عقليا يمكن أن يتخذ أساسا في دراسة جميع اللغات) .

(94) له : Grammaire générale analytique (النحو العام التحليلي ، 1799) .

(95) عبر عنها هؤلاء النحاة بكلمة Proposition ومعناها : « القضية » (« enuntiatio ») وهذا يرينا مدى تأثرهم بالمنطق اليوناني .

(96) انظر مقالته : Construction في دائرة المعارف (1756 ، 5 ، 41) .

(97) ان الذين اعتمدوا أفكار دومارسي في العصر الحاضر كثيرون . نذكر منهم Brunot و Jespersen و Bally .

عند لوك Locke وجميع الحسيين) الا أنها مادة خام تحتاج الى أن تحور وترتب وتجمع في داخل الاجناس والانواع حتى تصير معلومات معقولة (وفي هذا يفارق غيره من الحسيين لانهم لا يعيرون أهمية كبيرة لهذه العمليات وأرجعوا كل المعارف الى المادة المحسوسة واستهانوا بدور العقل اذ لا دور له عندهم الا مجرد الجمع والحشد) . ولكن العقل لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل بدون أن يعتمد على اللغة ، أو بالاحرى الادلة والاعلام مهما كان نوعها . يقول في هذا الصدد : « امنع على الذكي من الناس معرفة الكتابة ، فسوف يحرم من المعارف الكثيرة التي يسهل نيلها بها حتى على الغبي منهم . ثم احرمه من الكلام : فسوف تحصره في حدود ضيقة وحالة الابكم شاهدة على ذلك ، ثم احرمه من جميع ما يمكنه أن يستعمله من الادلة حتى لا يعرف كيف يعبر عن أبسط الامور بما يناسبها من الاشارة : فستجعل من هذا شخصا أبله » (98) يستنتج من هذه الحقائق أن الفكر انما هو عمل (بمعناه الرياضي : calcul, opération) (99) مثل جميع الاعمال الرياضية : **لا يتم الا بالاعتماد على الادلة المصطلح عليها** وبالنسبة له الادلة اللغوية بصفة خاصة ، فبهذا يكون كوندياك قد سبق جميع الفلاسفة واللغويين في زمانه ومن جاء بعدهم الى أهم نظرية ظهرت حديثا وتأسس عليها كل من علم اللسان وعلم الادلة أو السيمياء (Sémiologie)(100) والمعلوميات أو المعاليم (Informatique) ، وعلم الضبط الآلي (Cybernétique) (101) وغيرها من العلوم والتقنيات الحديثة . وقد زعم بعض الباحثين في الايام الاخيرة (102) أن محاولة تشومسكي في ارجاع بعض أفكاره الى نحاة بوررويال وتسميته هذه الافكار :« **باللسانيات الديكارتية** » Cartesian linguistics (103) هو خطأ وتوهم منه وذلك لأن الكلام عند نحاة بوررويال ليس الا مرآة صادقة للفكر يتراءى فيها بكيفية سلبية لانه أسبق منه عندهم فممكن حينئذ أن يستغني عنه . ثم لاحظوا أن الفكر ينحصر في نظربوررويال في المنطق وحده . وهذا الذي قالوه عن الفوارق التي تميز بين بوررويال وكوندياك كله صحيح وصحيح أيضا أن تكون أفكاركوندياك أقرب بكثير الى النظريات الحديثة ولكن ان أخطأ تشومسكيفي انتسابه الى هؤلاء النحاة فان انتسابه الى ديكارت ليس كله خطأ ، لان الغلط الذي يرتكبه جميع اللغويينالاوربيين هو الربط بين ديكارت وبوررويال ، فان صح أن يكون هذا الاخير ديكارتي المذهب فيما يخص المنهجية العامة (كتحليل مادة

---

(98) انظر كتابه : Essai المشار اليه : 1 ، الفقرة 11 من الفصل الأول ، باب 4 .

(99) « العمل » بمعنى المجموع من الأفعال المرتبة التي يفعلها الحاسب مثلا عند الجمع أو الطرح أو استخراج جذر أو الجبري الذي « « يجبر » و « يقابل » أو الرتابة (ordinateur = computer) التي تقوم بأعمال أشد تعقيدا من هذا .

(100) هو علم يدرس سريان المعلومات في داخل المجموعات المنتظمة وكيفية استغلالها كما يدرس كيفية استعمال ما يحصل من هذا السريان وهذا الاستغلال لاحداث عمليات ضابطة بطريقة ارتجاعية .

(101) علم (وتقنية) غرضه العلاج الآلي المنهج للمعلومات باعتبارها قواما للمعارف وكل ما يمكن تبليغه وقد أطلقنا عليه هذا الاسم لأن « المعلوم » هو موضوعه بالذات .

(102) منهم H. Aarsleef في كتابه : The Study of Language in England (برنستون 1967 ، ص 583) و A. Joly في مقدمته لخطاب F. Thurot (Tableau des progrès de la Science Gram. بردو 1970 ، ص 28 وما بعدها) .

(103) له كتاب يحمل نفس العنوان (نيويورك ولندن 1966) .

البحث الى أجزائها الاولية والانتقال من البسيط الى المركب) التي عرضها في كتابه المشهور **الخطاب في المنهاج** فانه أرسطو طاليسي في غالب معانيه اللغوية المنطقية . أما ديكارت فهو أول من دعا في أوربا الى استعمال الاستنتاج الرياضي في جميع البحوث بل هو الذي وضح — لاول مرة — أسرار هذا الاستنتاج وميزته الخاصة وبماذا يفارق استنتاج المنطق الارسطي . وما نشرت هذه الافكار الا بعد وفاته (في ابان القرن الثامن عشر (104) ومن هذه الجهة يمكننا أن نصحح تسمية تشومسكي لا على أساس ما يظنه (105) بل على أن **مبادىء النحو التفريعي** الذي تصوره **هي نفس المبادىء** التي اكتشفها ديكارت في **العمليات الرياضية** وأهمها هذا النوع من الاستنتاج الذي لم يتفطن اليـه أرسطو ولا المناطقة القدامى (لجهلهم العظيم بأسرار الرياضيات) (106) .

أما جيمس هاريس فقد اشتهر بكتابة الموسوم باسم : هرماس (*Hermes*) (107) ويمتاز عن العلماء والفلاسفة الانكليز الذين عاشوا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بما بذله من جهد في تفهمه لافكار الفلاسفة اليونانيين ونظرياتهم اللغـوية واستخراجه منها ما كان يبدو له صحيحا ، وهذا لعدم اقتناعه بما أتى به الفلاسفة الحسيون ، وما كان يشاهده عند أتباعهم من الغلو والتطرف في تفضيلهم للحس

---

(104) في كتاب : Regulae ad directionem ingenii ، 1701 ، انظر بالخصوص القاعدة السادسة) .

(105) فديكارت لم يأت بجديد عند ما استدل على وجود فكر انشائي خلاق عند الانسان وعدم وجود مثل ذلك عند سائر الحيوانات بقدرة الانسان على الوضع والاصطلاح ، وذلك مثل الكلام) . ولا نفهم كيف جوز تشومسكي لنفسه أن يسوي بين هذه الفكرة القديمة (وقد اعترف بقدمها . انظر الهامش 9 من كتابه المشار اليه) التي طرقها أكثر الحكماء وأصبحت منذ زمان بعيد مطروحة في الشوارع وبين حقيقة هذه القدرة أي القدرة على الخلق والابداع وكيفية وقوعها بالفعل . فانه لا يكفي أن ينتبه الى أن سلوك الانسان انشائي بسبب ما منح من العقل وسلوك الحيوان آلي لانه حرم هذه القوة (وليس العلماء متأكدين تماما من هذا القول الاخير) وأن الدليل على هذا هو قدرة الآدمي على الكلام . اذ المهم بعد هذا هو أن نعرف كيف يستطيع الانسان أن يبدع أي أن يخرج من الاشياء الحاصلة أشياء جديدة غير حاصلة وبالتالي أن يقدر على التعبير عن كل ما يطرأ عليه وعلى ما يحيط به . فالفرق واضح بين الشعور بوجود هذه الصفة الانسانية (وهو شعور قديم جدا) وبين الشعور بحقيقته ومقوماته وهي هذه التي نتعرض لها فيما يلي .

(106) ما هيته تنحصر في استنباط شيء من شيء آخر لا باستخراجه منه (فهذا القياس الارسطي) بل **بينائه عليه** كما يبني العالم العربي الفرع على الاصل أي بعملية معلومة مضبوطة سلفا تحول الشيء الحاصل المعلوم وهو الاصل في اصطلاحنا القديم الى الشيء المطلوب المجهول وهو الفرع (وهذا هو جوهر العمل الرياضي) . ويترتب على هذا أن العمليات التي تبنى عليها تراكيب الجمل في الكلام — وهي من جنس هذا التفريع الرياضي — هي سبب القوة أو الملكة اللغوية العجيبة التي يتمكن بها المتكلم من احداث عدد لا يحصى من الجمل المختلفة بعدد قليل جدا من العناصر الاولية أي أن يحصر باللمتناهي من الحروف المفردة اللامتناهي من الجمل المركبة وذلك بفضل العدد القليل أيضا من المثل والضوابط التركيبية . ومهمة الباحث في النحو التفريعي الآن متوقفة على اكتشاف أنجع طريقة لحصر هذه الضوابط الخفية حصرا رياضيا كليا ومحاولة أن لا يشذ عنه شيء اطلاقا . وهذا يستلزم بحثا عميقا طويل النفس تتعاون عليه الجماعات الكثيرة من الباحثين ذوي الاختصاصات المتنوعة والآلات الالكترونية العظيمة المفعول .

(107) اسمه الكامل : Philosophical Inquiry concerning Language and Universal Grammar لندن (175 ، ينقل الى الالمانية ثم الفرنسية في 1796) .

تفضيلا أفضى بهم الى الازدراء بالنظر والحط من قيمته . والحق أن رجوعه الى الفكر اليوناني — وكان يجهل الكثير من هؤلاء التجريبيين أغلب ما جاء به — انما كان رد فعل على هذا العناد ، ولذلك لم يكن امتثالا وتقليدا ، بل محاولة لاثراء مذاهب النحويين بما فاتهم من المعاني النظرية العميقة . وحصل هذا الاثراء بالفعل لان هاريس تفهم جيدا معاني اليونانيين وتجاوز بذلك لا التجربية المتطرفة فقط ، بل الفلسفة اليونانية نفسها ، ولم يكتف بذلك ، بل رجع أيضا — وان لم يصرح به دائما — الى ذلك القرن الثالث عشر الذي طالما نوهنا بما أمده للعلوم اللسانية الاوربية (108) . أما نظريته اللغوية العامة فهي مماثلة لما رأيناه عند كونديااك : اللغة هي قوام الفكر وعدته ، يحصل بحصولها ويزول بزوالها ولا يريد باللغة هذه التي تستعمل في التخاطب اليومي فقط بل كل ماينتظم من الاعلام والادلة ويصلح للتبليغ . وان كانت اللغة والفكر متلازمين فان للانسان قوة نفسانية تسبقهما في الوجود ، وهي قدرته الطبيعية على تصوير الاشياء تصويرا رمزيا ومنها ينتج الفكر واللغة معا (109) .

وهذا يؤديه الى أن يحدد اللغة بتحديد قريب جدا مما هو عند سوسور : « **نظام** (System) **من الاصوات المقطعة ، كأدلة أو رموز لافكارنا** ، وبالاخص العامة والكلية منها » (ص 337) .

وظهرت في هذا العصر أيضا بعض المحاولات في تحقيق القرابة بين اللغات وكان ليبنيتيس قد دعا ، كما رأينا ، الى جمع الاحداث اللغوية وتدوينها وأصدر في بداية هذا القرن كتابا مفيدا (110) ينقض فيه ما ادعاه العلماء منذ القرن السادس عشر من أن العبرية هي أم اللغات كلها (لاسباب دينية كما قلنا) ويجعل مبدأ اللغات في أقدم ما يصور من العصور . وقسم لغات الغرب والشرق التي كان يعرفها الى فصيلتين كبيرتين : السامية واليافثية (نسبة الى سام ويافث بني نوح) وكل فصيلة تنقسم عنده الى أقسام أخرى : اللغات الايطالية والسلتية والجرمانية والسلافية واليونانية بالنسبة الى اليافثية(111) . واهتم الناس في ذلك الزمان اهتماما كبيرا بمبدأ اللغات وقرابتها (112) . وبدرت عند ذلك بوادر المقارنة العلمية التي ستزدهر في القرن التاسع

---

(108) من لغوي القرون الوسطى الذين تأثر بهم نذكر توماس الارفورتي وان لم يذكر أي واحد منهم فلانه أخذ غالب أفكارهم عن Sanctius وتأثره بهذا الأخير ظاهر يشهد به الكتاب كله . وبسبب شهرة هذا الكتاب وذيوعه كتب لهذه الافكار الحياة والبقاء وسنرى ذلك في كلامنا عن اللغوي فون هومبولت .

(109) انظر القسم الثالث والأخير من هرماس .

(110) عنوانه : Brevis designatio meditationum de originibus gentium ductis potissimum ex indicio linguarum (برلين ، 1710)

(111) وكان أحد المستشرقين الأولين لودولف (Ludolf) قد سبقه (في 1702) الى تحقيق القرابة بين اللغات السامية . وكذلك E. Lhuyd بالنسبة الى اللغات السلتية و Ten Kate بالنسبة الى الجرمانية

(112) هذا الاهتمام في ذاته قديم جدا غير أن العلماء جد مختلفين في كيفية التعرض لهذا المشكل .

عشر أيما ازدهار . ولاول مرة نلاحظ عند بعض اللغويين : منهم المجريين سينوفيتش (Sajnovics)المتوفي في 1785 وجيارماتي Gyarmathi من 1750 الى 1830 (113) ثم الاسباني لورانتسو هرفاس (L. Hervas) (114) ما سوف تبنى عليه المقارنة المنهجية وهو النظر في تناسب الابنية النحوية الصرفية بين لغة واخرى لاثبات قرابتها وتجنب المشابهة السطحية التي يجدها كل شخص بين ألفاظها (115) . الا أن هذه المحاولات كانت قليلة وسابقة لاوانها لان الفكرة السائدة فى القرن الثامن عشر هي فكرة التناسب الوضعي والقرابة الشكلية لا **النسب** اللغوي والقرابة الموروثة . وسنرى في الفصل المقبل ان شاء الله أن هذه الفكرة الاخيرة هي نسجة لاحداث خطيرة حدثت في الفصل المقبل ان شاء الله أن هذه الفكرة الاخيرة هي نتيجة لاحداث خطيرة حدثت بظهور النحو المقارن والدراسات التطورية على مسرح البحث اللغوي العالمي .

« يتبع »

عبد الرحمن الحاج صالح

---

(113) انظر كتابه : Affinatates Linguae hungaricae cum linguae fennicae originis grammatice demonstratae (جوتنجان ، 1799) .

(114) فى كتاب له : Idea dell' uneverso (نشر بالاطالية اولا فى 1784 . أنظر الجزء السابع) .

(115) وسنرى أن المقارنة بين المفردات تنبني لا على وجود مشابهة بينها لفظا ومعنى (فهذا فى غاية البساطة) بل على قوانين تطور الأصوات .